حَوْلَهَا نُدَنْدِنُ

حُقُوقُ الطَّبعِ مَحفُوظَةٌ ©

اسم الكتـــاب: حولها ندندن
تـأليـــــــف: عماد زعيتر
تدقيق لغـوي: مختار مراد
تصميم داخلي: الباشا عبد الباسط
النـاشـــــــر: دار الزيات للنشر والتوزيع

القـطـــــع: 21X14
سنـة النشـر: 2023

تم الإيداع بدار الكتب والوثائق المصرية برقم: 14514 / 2023
الترقيم الدولي (ISBN): 978 - 977 - 844 - 423 - 0

دار الزيات للنشر والتوزيع
المشهرة قانونًا بسجل تجاري رقم/ 49351

ت: 01066736765 - 01015766014 / shahnda71@gmail.com

9 789778 444230

عماد زعيتر

حَولَهَا نُدَنْدِنُ

2023

مقدمة

وضعت يدي على كنوزك، فانتبه لها واحفظها.

وعاينت جراحك، وأتيتك بما يلزمها.

فهذه دندنة بين الجنة التي هي أقرب إليك من شِراك نعلك،

والنار التي مثلها في القرب.

الرفق

دخل رجل إلى مجلس هارون الرشيد ليعظه ويذكره، ولكنه أغلظ له القول، فقال له هارون: قد أرسل الله من هو خير منك إلى من هو شر مني، أرسل الله موسى وأخاه إلى فرعون، وطالبهما بالرفق في مخاطبته: "فقولا له قولًا لينا لعله يتذكر أو يخشى".

قال -صلى الله عليه وسلم-: "من يُحرم الرفق يُحرم الخير كله".

خرج زين العابدين بن الحسين من المسجد فتعرض له رجل بسوء، فأراد الناس أن يتعرضوا له، فقال زين العابدين: دعوه. وقال للرجل: ما أخفاه الله عنك من ذنوبي أكثر مما تعلم، ألك حاجة أعينك عليها؟ فاستحيا الرجل فخلع زين العابدين عباءته وأعطاها له، وأمر له بألف درهم.

فكان هذا الرجل كلما قابله في الطريق قال له: أشهد أنك من أولاد الأنبياء.

ما الذي أخرج الرجل من ثورة الغضب والسبّ إلى تلك الكلمة العطرة؟

"ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم".

لقمان الحكيم قال لابنه وهو يعظه:

يا بني كذب من قال إن الشر بالشر يُطفَأ، فإن كان صادقًا فليوقد نارين ولينظر هل تُطفىء إحداهما الأخرى، إنما يُطفَأ الشر بالخير، كما تُطفَأ النار بالماء.

تعالَ نطرح سؤالًا تمهيديًا:

ما معنى الرفق؟

لين الجانب بالقول والفعل والأخذ بالأسهل، وهو ضد العنف.

فما أحوجنا إلى الرفق في أيام قست فيها القلوب والطباع فنترفق في عملنا وقولنا، ليس عن ضعف وعجز، بل حكمة ورشد وأخلاق كريمة نتقرب بها إلى الله، فالمؤمن هين لين ليس مجرد كلام للتنظير تلوكه الألسن، بل نريده واقعًا عمليًا نحياه، فقد انتكست المفاهيم عند البعض فظنوا أن الغلظة رجولة والتهور شجاعة، بل سولت لهم أنفسهم بأن الترفق بالناس وهن وانكسار، فساءت الأخلاق، وانتشرت مظاهر العنف والبطش.

في مجلس أحد العلماء دخل رجل ومعه حربته يريد أن يسأل ويستفتي فغرس حربته في الأرض، فوقعت على إصبع العالم فلم يتكلم أو يتحرك حتى أجاب الرجل وأفتاه ومضى، ثم رفع قدمه، فإذا هى تنزف دمًا فقيل له: لمَ لمْ تتحرك من الوهلة الأولى وتصيح فيه، فقال: خشيت أن يضطرب لما صنع فيرتجّ عليه السؤال، فيظل جاهلًا بدينه.

يقول -صلى الله عليه وسلم-:

"إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه ولا يُنزع من شيء إلا شانه".

تعي جيدًا مدى مكانة المسجد في نفوسنا، بقعة طيبة من خير بقاع الأرض فيأتي أعرابي من البادية، ويقف في المسجد ويرفع ثوبه، تراه ماذا يصنع؟ إذ به يبول في المسجد، فاندفع الصحابة نحوه ليكفوا أذاه عن بيت الله، فتأتيهم الإشارة والأمر النبوي لا تذرموه ولا تعجلوا عليه، دعوه حتى ينتهي، فلو انقطع بوله خوفًا ربما أضر بدنه، ولو فرّ منهم في

المسجد سينتشر الدنس في مواضع كثيرة، حتى إذا انتهى الرجل قال: أريقوا على بوله ذَنُوبًا من ماء، ثم دعا الأعرابي وقال: "إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا القذر، إنما هي لذكر الله والصلاة وقراءة القرآن".

بحكمة ورشد عالج المشكلة ونصح فاعلها حتى لا يعود لمثلها ثم ضرب -صلى الله عليه وسلم- مثالًا بديعًا لأصحابه، فقال: "إنّ مثلي ومثل هذا الأعرابي كمثل رجل شردت عليه ناقته، فقام الناس يشتدون خلفها، وهي تشتد هاربة والرجل يصيح: خلّوا إليّ ناقتي حتى إذا تفرقوا عنه، عمد إلى شيء من خشاش الأرض، ثم جعله في ثوبه ورفعه إليها ودعاها، فلم يزل بها حتى جاءته".

كل عمل يخلو من الرفق والتلطف يكون مآله إلى سوء، ويندم فاعله على بطشه واندفاعه.

جاء رجل إلى مجلس الخليفة عمر يشتكي فلانًا أنه قد فقأ عينه فقال بعض الحضور: القصاص يا أمير المؤمنين، العين بالعين.

فقال عمر بتلطف ورفق: مهلًا يا أصحاب رسول الله، فإذا جاءكم الرجل وقد فُقئت عينه، فلا تحكموا له حتى تروا الآخر، فربما فُقئت عيناه.

من العدل والإنصاف أن تسمع من الطرف الآخر، يأتيك صبيك باكيًا متهمًا جاره بأنه اعتدى عليه، فقبل أن تندفع وتغلي الدماء في

عروقك، هلَّا تثبت أولًا من الواقعة أنها حدثت على النحو الذي حكاه صبيك، لعلك تقول في نفسك الولد يبكي، وعز عليك ما ذرفته عيناه، ونسيت أن أخوة يوسف بعدما ألقوه في الجب "جاءوا أباهم عشاءً يبكون".

قال -صلى الله عليه وسلم-: "من حُرم حظه من الرفق فقد حُرم حظه من الخير".

فمن تخلى عن لطفه وترفقه غمرته الخسارة ولحق به الضرر وتناوشته المكاره، وتباغضه الناس، وانفضوا من حوله، فما وجدوه إلا فظًا غليظًا يخسر المواقف بتهوره وعلى أثرها القلوب.

حدث خلاف في مجلس الشافعي بينه وبين تلميذه يونس بن عبد الأعلى، فترك يونس الدرس وانصرف، وفي المساء سمع يونس طرقًا على بابه، فقام ليفتح فوجد شيخه الشافعي بالباب.

فقال الشافعي: يا يونس، تجمعنا مئات المسائل وتفرقنا مسألة واحدة. يا يونس، لا تحاول الانتصار في كل الخلافات، فأحيانًا كسب القلوب أولى من كسب المواقف. يا يونس، لا تهدم الجسور التي بنيتها بيني وبينك ربما تحتاجها للعودة يومًا. يا يونس، اكره الخطأ ولا تكره المخطئ، ابغض المعصية ولكن ارحم العاصي، انتقد القول لكن احترم القائل، فإن مهمتنا أن نقضي على المرض لا على المريض.

قال ابن القيم -رحمه الله-: "من رفق بعباد الله رفق الله به، ومن رحمهم رحمه، ومن أحسن إليهم أحسن إليه، ومن جاد عليهم جاد عليه، ومن عامل خلقه بصفه عامله الله بتلك الصفة في الدنيا والآخرة، فالله -عز وجل- لعبده حسب ما يكون العبد لخلقه".

فإياك والعنف، فإنه يهدم فيك كل جميل، ويُفسد من أمورك كل جليل، وينزع منك راحة الصدر وتغدو عليلًا، ويفرق عنك إخوانك وتحيا دهرك بغير خليل.

ذهب رجل إلى أحد الحكماء يلتمس منه الوصية، فقال الحكيم: سقطت أسناني لأنها جامدة وبقي لساني لأنه مرن.

فتمهل وترفق وتبصر العواقب، ويسر ولا تعسر، ودبر لأمرك ولا تنزع عصا العز من قبضتك، وتوكأ عليها ما حييت، ولا تُشمت بك الأعداء أو تجلب همك للأصدقاء، ولا تندفع خلف غيرك فخفق النعال وراء الحمقى ما أبقى من عقولهم شيء، وادع بها ولا تمل: "اللهم ألهمني رشدي وقني شر نفسي".

قيل لأحد الفلاسفة: ماذا تعلمت من الفلسفة؟

قال: أن أعيش في سلام مع نفسي ومع الناس.

فارحم ضعف أحبابك وتجاوز، لعل الله يتجاوز عنك، ولا تدع المواقف تحرق صورة جميلة لك في قلوب الناس، واحذر وإني لك من الناصحين أن تتردَّى في عيون الخلق، فابق ملكًا ولو من غير عرش.

وائل الحضرمي سليل ملوك اليمن قدم على النبي -صلى الله عليه وسلم- مُعلنًا إسلامه فرحب به النبي وأدناه، ثم أعطاه أرضًا نظير ما تركه خلفه من المُلك والزعامة، وأرسل معاوية بن أبى سفيان ليدله على الأرض، وكان معاوية -رضي الله عنه- لا ينتعل حذاء، فقال لوائل: أردفني على الناقة خلفك.

فقال وائل: ليس شحًا بالناقة، ولكنك لست رديف الملوك.

فقال معاوية: إذن أعطني نعلك.

فقال وائل: ليس شُحًا بالنعل، ولكنك لست ممن ينتعل أحذية الملوك.

مضت عقارب الأيام، وجرت خلفها السنين، وآلت الخلافة إلى معاوية، فجاءه وائل في دار خلافته بالشام، بعدما صار كهلًا تخطى الثمانين من عمره، فنزل معاوية عن عرشه وجعله مكانه، وأكرمه وتسامر معه، وذكّره بما كان بينهما من قبل، ثم أمر له بعطاء من بيت المال، فأبى وائل أن يقبل المال وقال: أعطه لمن أحق به مني. وأردف قائلًا:

وددت بعدما رأيته منك لو رجع بنا الزمان لأحملك يومها بين يدي.

✍ **وصية:**

قال الإمام الشعبي لرجل يخاصمه ويدعو عليه: "إن كُنتُ كما قُلتَ فغفر الله لي، وإن لم أكن كما قُلت فغفر الله لك".

فهكذا ينبغي أن نكون جموع المسلمين "رحماء بينهم".

جاء رجل إلى النبي ﷺ وقال: كم أعفو عن الخادم؟

فقال: في كل يوم سبعين مرة.

فقبل أن تمتد يدك على خادم أو تنال بحدة لسانك من أجير عندك أو تحد نظرك لعامل في محطة وقود أو تُبدي امتعاضك لنادل في مقهى، تذكر أنه بقي له من العفو تِسع وستون مرة.

أخذتني الدهشة من قول أنس -رضي الله عنه-:

خدمت النبي -صلى الله عليه وسلم- عشر سنين، فما قال لي أُفٍ قط، ولا قال لشيء فعلته لمَ فعلته، ولا لشيء تركته لمَ تركته.

فلم يتبرم منه سيده طوال تلك السنوات حتى ولو مرة بأفٍّ، فلو أُتِيَ لنا بخادم فلن يمر يوم دون مراجعة ولوم وعتاب وتقريع.

مكارم الخلاق تثمر رفقًا...

جاء شاب إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- يطلب منه الإذن، ربما خطر ببالك أن الشاب جاء يستأذن للسفر أو الجهاد، ولكن رغبته التي

يرجوها صدمت الصحابة، وإذ به يقول: ائذن لي بالزنا. فهمهم القوم وقالوا: كُف عن قولك.

عندما تطلب شيئًا من أحد ويكون الأمر مُخجلًا، تهمس في أذنه أو تحاوره منفردًا، ولكن الشاب على الملأ يجهر برغبته في الفُحش، أنا على يقين بأن نار الشهوة أحرقت على الشاب قلبه، وأنه تراجع غير مرة عن طلبه المُخزي، ولكن حين فاض به الكيل هتف بصرخته القبيحة، فأشار النبي عليه أن يدنو منه فدنا، وانتظرت أن يهمس النبي في صدره بقوله -تعالى-: "قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن" أو يسرد عليه قوله: "لئن يُضرب أحدكم بمخيط من حديد في رأسه خير له من أن يمس امرأة لا تحل له" ولكن تناول الأمر أتى من طريق الرفق، وليس بسياط الوعظ.

فمن عظمت رغبته وأعلنها هكذا لن تؤثر فيه قوارع الآيات.

فسأله -صلى الله عليه وسلم-: أتُحبه لأمك؟

وفكر الشاب، أمه تزني وتأتي هذا الفعل الشنيع.

فقال: لا، جعلني الله فداك.

قال: كذلك الناس لا يحبونه لأمهاتهم.

قال: أتحبه لابنتك؟

فكر الشاب، ابنته تزني وتكسر هامته وتضع رأسه في الوحل.

قال: لا، جعلني الله فداك.

قال: كذلك الناس لا يحبونه لبناتهم.

قال: أتحبه لأختك؟

فكر الشاب أخته تزني وتسود وجهه بقبح ما أتت.

قال: لا، جعلني الله فداك.

قال: كذلك الناس لا يحبونه لأخواتهم.

تغيرت نظرة الشاب، ورأى الأمر بعين تجاوزت رغبة المتعة والظفر بشهوة، فقال جئت وما من شيء أحب إليّ من الزنا، وقمت وما من شيء أبغض إليّ من الزنا.

لأن الحوار خرج من تحت عباءة الرفق، فاقتنع عقله وبقيت جوارحه، فخشي النبي أن يُؤتى من قِبلها فوضع يده الشريفة على صدره، ودعا له:

"اللهم اغفر ذنبه، وطهر قلبه، وحصّن فرجه".

وبقيت همسة...

حين أسمع صوت شجار يأتي من بيت جار أو قريب ينتابني الحزن، فهذا الأب الذي يعلو صوته ويؤذينا ضجيجه نراه مع الناس يلاطفهم ويوادعهم، فلمَ حظ أهله منه الغلظة والجفاء، تلك المرأة في عملها تمازح وتترفق لمَ عبست في وجه أهلها، ألسنا أحق ببيت سعيد قوائمه الحب والملاطفة واللين؟

حتى متى تُعاتبنا ضمائرنا ولا نستجيب؟ فخيركم خيركم لأهله.

وقد قال علي بن أبي طالب: من لانت كلمته وجبت محبته.

ربما تتعجل الهمسة..

من بيت النبوة تأتيك:

"يا عائشة ارْفُقي، فإن الله إذا أراد بأهل بيت خيرًا أدخل عليهم الرفق".

فأرجو من كل أم أن تترفق بأبنائها وتعذر وتتأنى، وتوجه بغير توبيخ، وترشد بغير قسوة، فالكلمة الطيبة صدقة، والأقربون أولى بالمعروف.

ومن بديع ما قرأت:

الرفق رداء القلوب النقية، فلا يلتحف به فقراء الأدب.

الغيبة

سمع الحسن البصري بأن رجلًا اغتابه، فأرسل له مع خادمه طبق فيه رطب، وقال للخادم:

قل له سمع سيدي الحسن أنك اغتبته وأهديته حسناتك، فلم يجد غير طبق الرطب يُهديه لك، وإن عُدتم عُدنا.

سفيان الواسطي قال: ذكرت رجلًا بسوء في مجلس قاضي البصرة معاوية بن أبي إياس.

فسألني معاوية:

أغزوت الفرس؟ فقلت: لا.

أغزوت الروم؟ فقلت: لا.

فقال: سلم منك الفرس والروم، ولم يسلم منك أخوك المسلم.

قال سفيان: لم أغتب أحد بعدها.

جلس ثلاثة أصدقاء في مجلس كثر فيه لغطهم، وطعنوا بألسنتهم في القاصي والداني، ثم دق هاتف أحدهم، فاضطر أن يدعهم ويذهب لبعض شأنه، وقبل أن ينصرف ناشدهم ألا يتكلموا عنه بعد أن يخرج.

... مسكين، حرم نفسه الأجر!

قال عبد الرحمن بن مهدي:

لولا أني أكره أن يُعصى الله لتمنيت ألا يبقى أحد في المُصر -أي المدينة- إلا اغتابني، فأي شيء أهنأ من حسنات يجدها الرجل في صحيفته لم يجتهد في عملها.

عذرًا لو فاتني التعريف، ولكن في عُجالة أستدرك الأمر.

أتدرون ما الغيبة؟

النبي -صلى الله عليه وسلم- يسأل أصحابه.

قالوا: الله ورسوله أعلم.

قال: ذِكرُك أخاك بما يكره.

قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول.

قال: إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بَهتَّهُ.

البهتان هو الكذب العظيم وذنبه أعظم من الغيبة.

رب كلمة قالها اللسان فهلك بها الإنسان، فلو تتأمل تجد أن تِسع أعشار الذنوب من اللسان، الغيبة والنميمة والكذب والقذف و..

"إذا أصبح بن آدم، فإن الأعضاء كلها تُكفّر اللسان - تخضع له – وتقول: اتقِ الله فينا، فإنما نحن بك، فإن استقمت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا".

قالت عائشة -رضي الله عنها- للنبي: حسبك من صفية أنها كذا -أي قصيرة- فقال -صلى الله عليه وسلم-: "لقد قلت كلمة لو مُزجت بماء البحر لمزجته".

كلمة مفردة عكرت ماء البحر الكبير من شدة قُبحها، فما بالك بمن يفتري على إخوانه ويبهتهم، ويُحدث الناس بعثراتهم.

"من قال في مؤمن ما ليس فيه أسكنه الله ردغة الخبال"

أَوَتَدْرِي ما هي؟

عصارة أهل النار، جعل الله سُكناه هناك، حيث القيح والدم وما يخرج من أجسادهم، وما يسيل من فروج المومسات.

لعل نفسك اشمأزت من مجرد الكلام عنها، فكيف بمن يسكنها؟!

قال سفيان الثوري: لئن تلقى الله بسبعين ذنبًا بينك وبين الله، أهون عليك من أن تلقاه بذنب واحد بينك وبين العباد.

أمر بشع استخف به الجميع

سامحني إن تجاوزت حدود الفطرة السوية، وطرحت عليك هذا السؤال: ماذا تقول في رجل وطئ أمه؟

تمتعض وتُغمض عينيك من بشاعة السؤال، ولكن لا شك أن ذنبه عظيم، ولكن يبقى المغتاب أعظم ذنبًا.

ترمقني بنظرة حادة، وتسألني عن الدليل..

روى الطبراني في الأوسط عن البراء بن عازب -رضي الله عنه- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: "الربا اثنان وسبعون بابًا أدناها مثل إتيان الرجل أمه، وإن أربى الربا استطالة الرجل في عرض أخيه".

فالخوض في أعراض الناس أشد من هتْك أعراض المحارم، ومع ذلك تجد البعض يتهاونون في الأمر حتى صارت الغيبة فاكهة المجالس، وتلطخ بها كثير من الخلق، حتى تجد الرجل يتنزه عن الحرام والمسكرات، ويحرص على الصلاة، ويدع مالًا فيه شُبهة حسبة لله، ولا يتورع عن لحوم إخوانه، وكأنه غفل عن حقيقة إسلامه، فالمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده.

فلو جاء يوم القيامة من المُفلسين، فلا يلومن إلا نفسه بعدما شتم وسب واغتاب، فيقتص منه أصحاب الحقوق، فتفنى حسناته ويُطرح في النار.

قال رجل للفضيل بن عياض: إن فلانًا يغتابني.

فقال الفضيل: قد جلب لك الخير جلبًا.

وكأن ابن المبارك يزجرنا بلطف:

لو كنت مغتابًا أحدًا لاغتبت والديّ، لأنهما أحق بحسناتي.

عن أبي أمامة الباهلي -رضي الله عنه- أنه قال:

إن العبد ليُعطى كتابه يوم القيامة، فيرى فيه حسنات لم يكن قد عملها.

فيقول: يا رب، من أين لي هذا؟!

فيقول: هذا بما اغتابك الناس، وأنت لا تشعر.

وربما لم يحنث الحسن في يمينه: والله للغيبة أسرع في دين المؤمن من الأكلة في جسده.

مشهد رهيب من المعراج

قال -صلى الله عليه وسلم-:

"لمّا عُرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون بها وجوههم وصدورهم، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟

قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم".

لهم أظفار من معدن قوي كالنحاس يخمشون بها وجوههم وصدورهم، تخيل مدى الوجع وقسوة العذاب، فما كانوا زناة ولم يسرقوا شعوبهم، ولكنهم وقعوا في أعراض الناس وذكروهم بما يكرهون، وبال شديد جروه لأنفسهم، ربما بكلمة واحدة "إن العبد ليتكلم بالكلمة لا يُلقي لها بالًا يهوي بها في النار سبعين خريفًا".

لذا؛ قال أحد السلف: أعرف من يعُدّ كلامه من الجمعة إلى الجمعة.

وقد كان أهل الورع يقولون في مجالسهم:

اللهم سلمنا وسلم المسلمين منا.

وقد قال -صلى الله عليه وسلم- لمن سأله عن النجاة: أمسك عليك لسانك، وابك على خطيئتك، وليسعك بيتك.

وكأني بالآية زاجرة لمن يخشى: "ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد".

فلا يُكبُ الناس في النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم.

قال -تعالى-: "ولا يغتب بعضكم بعضًا أيُحبُّ أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتًا فكرهتموه".

ولو صح الأثر لكانت الطامة أكبر:

"إن الإنسان يعذب يوم القيامة فتقدم له جيفة أخيه، يُكلف أن يأكلها، ويُقال: كُله ميتًا كما أكلته حيًا".

عسل مسموم على موائد الصالحين:

تفشت الغيبة وامتد لهيبها لمجالس أهل الفضل فتسمع أحدهم يقول أنا حزين على أمر فلان، فقد بلغني أنه يصنع كذا وكذا، وربما خرجت الغيبة من أحدهم في قالب الديانة، فيقول دعونا من ذكر فلانة فعندنا بنات، وكأنه يوحي لك بأنها فاجرة أو يقول: هدى الله فلانًا، فإنه يصنع كذا، فتكثر منهم الزلات: "وهم يحسبون أنهم يُحسنون صُنعا".

ولله در القائل:

وجدت سكوتي متجرًا فلزمته إذ لم أجد ربحًا فلست بخاسر

قال يحيى بن معاذ: ليكن حظ المؤمن منك ثلاثٌ:

إن لم تنفعه فلا تضره، وإن لم تفرحه فلا تغمه، وإن لم تمدحه فلا تذمه.

قيل لعمرو بن عبيد: لقد وقع فيك فلان حتى رحمناك.

فقال: إياه فارحموا.

حيلة ربما تنفع:

لم تكن تتخيل أن كلمة تكبُّ صاحبها على وجهه في النار وتُبدد حسناته وتورده المهالك، فتريد أن تحفظ لسانك، وتتحفظ عن لحوم إخوانك، فلا تسخر أو تزدري أو تذكر أحدًا بسوء بعد اليوم.

سألتزم الصمت هذه المرة، وأدع عبد الله بن وهب يُخبرك بحيلته:

نذرت أني كلما اغتبت إنسانًا أن أصوم يومًا، فكنت أغتاب وأصوم حتى تعودت الصيام، فنذرت أني كلما اغتبت إنسانًا أن أتصدق بدرهم، فمن حبي للدراهم تركت الغيبة.

دع مجالس الغيبة، ولا تركن لحديث أهلها ولا توافقهم خشية أن يملُّوك، ولا تنخدع بحديثهم فلو أرادوا إصلاح صاحبهم لهمسوا في أذنه، فالتمس رضا الله ولو أغضبتهم ورُدَّ عن عرض أخيك، والمرأة ترد عن عرض رفيقة العمل وجارتها ومن علمت عنهن خيرًا.

وقد جاء في مسند أحمد:

"من ردّ عن عرض أخيه رد الله عن وجهه النار يوم القيامة"

فيكفيك أن الله سيدافع عنك يوم القيامة؟

كفارة الغيبة:

لعلك تبحث عن كفارة تخفف بها حملك، وتتحلل بها من ذنوب كانت منك في حق إخوانك.

بداية تعالَ نتفق بأن الندم توبة، ثم استغفر لذنبك، ولكن ستبقى حقوق الخلق عالقة في عنقك. فلا تذهب لمن اغتبته وتقول سامحني، ذكرتك بسوء، فربما توغر صدره، ولكن في مثل هذا المجلس الذي اغتبته فيه اذكره بخير، واستغفر له.

الدعاء

يقول التابعي صلة بن أشيم:

جعت مرة في غزوة جوعًا شديدًا، فبينما أنا أسير أدعو ربي وأستطعمه، إذ سمعت وجبة من خلفي أى شيء يرتطم بالأرض، فالتفت فإذ بمنديل أبيض فيه رطب، في وقت ليس في الأرض رُطبة، فأكلت منه حتى شبعت.

أتاه المدد من حيث ظن...

"أمن يُجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء".

قيل لأحد الأعراب: هل تُحسن أن تدعو ربك؟

فقال: أدعوه: اللهم إنك وهبتني الإسلام من غير أن أسألك، فلا تحرمني الجنة وأنا أسألك.

سُئل علي بن أبي طالب: كم المسافة بين السماء والأرض؟

في زمن عزت فيه أجهزة الرصد وأدوات القياس.

فقال -رضي الله عنه-: دعوة مستجابة.

من ينابيع علمه أبصرنا بقصر المسافة، فمناجاتك أسرع من الضوء، وسريعًا تخترق الحجب، فاقرع أبواب السماء في سجودك، فأقرب ما تكون هناك.

"أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد".

ركب إبراهيم بن أدهم البحر، وغلب النوم عيناه فنام، واشتدت الريح، وتلاعب الموج بالسفينة فانتبه من نومه على صراخ الناس، فقال: يا رب أريتنا قدرتك، فأرنا عفوك.

فهدأت الريح، واطمئن البحر، وسكنت السفينة.

"ليس شيء أكرم على الله من الدعاء".

قال موسى -عليه السلام-: "يا رب إنه لتُعرض لي الحاجة من الدنيا فأستحيي أن أطلبها منك".

فقال الله -عز وجل-: يا موسى، سلني حتى ملح عجينتك، وعلف شاتك.

ملح العجين إن افتقدته في الدار، فأطرق باب الله قبل أن تطرق باب الجار، فمهما كانت حاجتك دنيوية، فاستعن بالله ولا ترجو غيره.

يقول عبد الله بن الزبير: وقفت إلى جوار أبي في موقعة الجمل فظل أبي يوصيني بدين عليه، وقال: يا بني إن عجزت عن شيء منه، فاستعن عليه بمولاي، فيقول عبد الله: والله ما دريت ما أراد حتى قلت: من مولاك؟ فقال: الله.

فقال ابن الزبير: والله ما وقعت في كربة من دينه إلا قلتُ يا مولى الزبير، اقض عنه دينه إلا قضاه.

روى البخاري في الأدب المفرد أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال:

"من لم يسأل الله يغضب عليه".

فكان يحيى بن معاذ يقول:

يا من يغضب على من لم يسأله لا تحرم من سألك.

"وقال ربكم ادعوني أستجب لكم".

سُئلت أم سلمة -رضي الله عنها- عن أكثر دعاء النبي، فقالت: كان يدعو: "اللهم يا مُقلب القلوب ثبت قلبي على دينك".

يقول ثابت البناني: أنا أعلم متى يُستجاب لي.

فقيل: متى يا ثابت؟

قال: إذا وجل قلبي، واقشعر جلدي، وفاضت عيناي، وفتح لي بالدعاء أعلم أنه سوف يُستجاب لي.

"إن الله حيي كريم يستحيي إذا رفع العبد يديه أن يردهما صفرًا خائبتين".

سأل النبي رجلًا: ماذا تقول في صلاتك؟

قال أتشهد وأدعو: اللهم إني أسألك الجنة وأعوذ بك من النار، أما إني لا أُحسن دندنتك ولا دندنة معاذ.

فقال -صلى الله عليه وسلم-: حولها ندندن.

بكلمات غير منمقة ادع ربك، بلغتك السقيمة تضرع إليه، دع عنك الرهبة التي يجدها الناس في حضرة الملوك، وتكلم على سجيتك، حتى إن لم تكن تُحسن الدندنة ونظم الخطاب.

صلى أعرابي ركعتين خفيفتين عند الكعبة، ثم مضى مسرعًا. فقيل له: أنت عند بيت الله الحرام، أما لك حاجة تدعو الله بها؟

فقال: بلى دعوته: اللهم إنك أحصيت ذنوبي فاغفرها، وتعلم بحاجتي فاقضها.

"أما يُحسن أحدكم أن يتملق ربه".

اشتد حزن يعقوب على يوسف حتى ابيضت عيناه، وفي إحدى الليالى قال: يا رب أما ترحم ضعفي، أما ترحم ذلي، أما ترحم فقري، أما ترحم كبر سني، أما ترحم شيبتي.

فلما نام من ليلته سمع مناديًا يقول: يا يعقوب وعزتي وجلالي وارتفاعي على خلقي، لو كان يوسف ميتًا لأحييته لك.

ثم جاءته البشرى في اليوم التالي.

تأمل معي حال طفل صغير يطلب من والده شيئًا يشتريه، فلا يمتثل الأب لرغبته، فيبكي الصبي ليواجه أباه بحيلة جديدة فيرقّ قلب والده لدموعه ويأتيه بحاجته.

فهلَّا ذرفت دموعك ليأتيك الله بحاجتك.

يقول أحد العارفين: كلما أتيت بابًا من أبواب الله وجدت عليه زحامًا، فأتيت باب الذل فوجدته فارغًا، فدخلت وقلت لكم هلموا.

فلا تدعو برأس مرتفعة، وتظن في نفسك العظمة.

فمعنى الدعاء: إظهار غاية الذل والافتقار إلى الله -عز وجل-.

الدنيا لا تخلو من محن ومنغصات ومصاعب وأزمات، فحين يشتد عليك الخطب وتداهمك الهموم فاطرق باب السماء "ليس لها من دون الله كاشفة" ومهما انقطعت بك الأسباب، فلا تيأس من روح الله "قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب"، فلا تعلق قلبك بأحد المعارف أو ما تحظى

به من علاقات، وارفع أكف الضراعة إلى كاشف الكربات "قل ما يَعْبَأُ بكم ربي لولا دعاؤكم".

قال ابن القيم: الدعاء من أقوى الأسباب في دفع المكروه وحصول المطلوب.

جاء رجل إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- وقال: كيف أقول حين أسأل ربي؟ قال: قل اللهم اغفر لي وارحمني وعافني وارزقني، فإن هؤلاء تجمع لك دنياك وآخرتك.

قال نفر من التابعين لأنس بن مالك: ادع الله لنا.

فقال: الدعاء يرفعه العمل الصالح.

عقب حاجة لمسلم قضيتها أو آية في كتاب الله قرأتها أو كسرة خبز تصدقت بها ارفع أكف الضراعة، فقد مهدت طريق الإجابة.

جاء رجل إلى عليّ بن أبي طالب وقال: إني مكاتب فأعنّي. الرجل يناشده أن يعينه على قضاء دينه، فقال عليٌّ: ألا أعلّمك كلمات علمنيهن النبي -صلى الله عليه وسلم- لو كان عليك مثل جبل دينًا أداه الله عنك. قل:

اللهم اكفني بحلالك عن حرامك، وأغنني بفضلك عمن سواك.

أتهـــزأ بالدعـاء وتـــزدريـــه وما تدري بما صنع الداء

سهام الليل لا تُخطي ولكن لها أمـد وللأمـد انقضـاء

اجتهد الفضيل بن عياض في تربية ابنه عليّ ليكون ورعًا من أهل الصلاح، فصعب عليه الأمر، ولعلك أنت أيضًا وجدت صعوبة مثلها، فكل ما تبنيه يهدمه الشارع ويسخر منه أصدقاء السوء، فلن يبلغ البنيان تمامه، أفصح الفضيل عن عجزه وهرع إلى ربه ودعا: "اللهم إني اجتهدت أن أؤدب عليًا فلم أقدر على تأديبه، فأدبه لي" فاستجاب له ربه وأصلح له ولده حتى قال سفيان بن عيينه: "ما رأيت أحدًا أخوف من الفضيل وابنه".

غريق:

هل تعلمون متى يستجاب الدعاء؟

سؤال طرحه الإمام أحمد على نفر من أصحابه ليجذب أسماعهم، فقال: مثل رجل في بحر هائج سقط من سفينته، فتعلق بخشبة، فظل يدعو يا رب يا رب، فإن دعوتم مثل هذا الرجل سيستجاب لكم.

جاء جماعة إلى النبي وقالوا: هل قريب ربنا فنناجيه، أم بعيد فننناديه، فنزل قول الله -عز وجل-:

"وإذا سألك عبادي عني، فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان".

خرج ثلاثة نفر يستسقون في زمن داود -عليه السلام- فقال أحدهم: اللهم إنك أمرتنا بعتق عبيدنا إذا شابوا في خدمتنا، وقد شِبنا في

خدمتك، فتفضل علينا بعتقنا، وقال الثاني: اللهم إنك أمرتنا أن نعفو عمن ظلمنا، وقد ظلمنا أنفسنا، فاغفر لنا، وقال الثالث: اللهم إنك أمرتنا أن لا نرد المساكين إذا وقفوا بأبوابنا ونحن مساكينك وقفنا ببابك، فجُدْ علينا بكرمك وإحسانك.

"من أحب أن يستجيب الله له في الشدائد فليكثر الدعاء في الرخاء".

من أجمل ما قرأت: حين تذهب إلى الله مكسور الجناحين تعود مُحلّقًا.

دعوة صادقة من قلب صادق:

مر عمر بن عبد العزيز -رحمه الله- برجل يلعب بالحصى ويدعو: اللهم زوجني من الحور العين.

فقال له عمر: بئس الخاطب أنت، ألقِ الحصى وأخلص الدعاء لله.

من آداب الدعاء أن تعزم المسألة، وتلح على الله في طلب حاجتك، ولكن أحضره معك!! ولا تتركه يرتع حولك.

أحضر قلبك معك، فقد جاء في الصحيح:

"اعلموا أن الله لا يستجيب دعاء من قلبٍ غافلٍ لاهٍ".

بنى الحجاج قصرًا، وجعل الناس يطوفون به، فقال الحسن البصري: ليت الحجاج يعلم أن أهل السماء قد مقتوه، وأهل الأرض قد

غروه، فأشفق عليه الناس خوفًا من بطش الحجاج وقالوا: حسبك يا أيا سعيد، فلما بلغت مقالته الحجاج استشاط غضبًا.

وقال لجلسائه: "تبًا لكم وسحقًا عبد من عبيد البصرة يقول فينا ما شاء، فلا يجد من يرده أو ينكر عليه، والله لأسقينكم من دمه يا معشر الجبناء، ثم نادى على السياف، وأمر الشرطة بإحضار الحسن، دخل عليه الحسن شامخًا وشفتاه تتحركان بكلمات لا يعيها من حوله، فقام إليه الحجاج، وأجلسه إلى جواره، وسأله عن بعض الأمور فأجابه من سعة علمه، فقال الحجاج: أنت سيد العلماء يا أبا سعيد وطيب له لحيته وودعه، وسط دهشة عارمة من الجالسين.

خرج الحسن بشموخه الذي به أقبل فتبعه الحاجب، وقال: لقد دعاك الحجاج لغير ما فعل بك، وإني رأيتك حين رأيت السيف والنطع حركت شفتيك، فماذا قلت؟

فتبسم له الحسن، وقال:

قلت: يا ولي نعمتي وملاذي عند كربتي اجعل نقمته بردًا وسلامًا عليّ، كما جعلت النار بردًا وسلامًا على إبراهيم.

حال الدعاء مع البلاء:

اعلم يقينًا بأن الدعاء يرد البلاء وتكون لك النجاة بدعوة والدتك لك في الصباح أو بسهم أطلقته وقت السحر، فيحفظك الله ولا يسوءُك،

وربما قلت في نفسك القدر لا يتغير ولا راد لقضاء الله. فهلّا تمهلت حتى تقرأ معي من خواتيم سورة الرعد:

"يمحو الله ما يشاء ويُثبتُ وعنده أم الكتاب".

كتب الله لك أن تصاب بحادث، ثم في اليوم ذاته تصدقت أو سألت الله العافية، فيمحو الله عنك الحادث، وتثبت لك المعافاة.

هذا لو كان الدعاء أقوى من البلاء، أما لو كان البلاء المُقدّر أقوى فسيلحق بك أذى ولا شك في هذه الحالة أن الدعاء خفف البلاء وأخذ من حدته، وربما كان البلاء في قوة الدعاء فيتصارعان في السماء إلى يوم القيامة.

قال -صلى الله عليه وسلم-: "الدعاء سلاح المؤمن، وأعجز الناس من عجز عن الدعاء".

فليس العاجز الذي ضعفت قوته وتوكأ على عصاه، أو وهنت جوارحه وتثاقلت خطاه، ولكن العاجز من ترك الدعاء، وعجز أن يرفع يديه لربه ويلتمس مبتغاه.

اسم الله الأعظم:

كان رجل له حاجة، فسأل أحد السلف: هل تعرف أحدًا مستجاب الدعوة؟

فقال: لا، ولكن أعرف من يستجيب الدعوة.

ذكر الشيخ الألباني في صحيح الجامع رواية عن أبي أمامة الباهلى أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال:

"اسم الله الأعظم في ثلاث سور من القرآن: في البقرة وآل عمران وطه".

قم وتناول مصحفك واقرأ هذه السور الثلاث وقِفْ على آياتها، واستخرج منها اسم الله الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سُئل به أعطى، وربما أساعدك في الوصول لبغيتك.

قال -صلى الله عليه وسلم-: "ألظّوا بـ يا (ذا الجلال والإكرام)".

أي الزموا هذه الدعوة وأكثروا منها.

أوقات الإجابة:

وقت السحر وفي السجود وعقب الصلوات وعند نزول المطر وحين يفطر الصائم وبين الآذان والإقامة الدعاء لا يُرد.

ولكن قبل أن تتهيأ للدعاء دعني أهمس في صدرك بشيء أخير.

شروط الإجابة:

الإخلاص: "فادعو الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون".

أكل الحلال: "أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة".

اليقين: "ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة".

ألا تعجل: "يُستجاب لأحدكم ما لم يعجل".

ودّ الشيطان لو ظفر منك بها، أن تيأس وتمل وتترك الدعاء، فإن كان الخير في التعجيل عجّل الله إجابة الدعاء، وإن كان الخير في التأخير أخر الله حاجتك "والله يعلم وانتم لا تعلمون".

لعلك تحمل في صدرك شيئًا على حاجة رجوتها منذ سنوات فات وقتها ولم تُقضَ.

تعالَ نتفق أنك حين دعوت لم تخسر، بل كنت من الرابحين وإن لم ترَ لك ربحًا.

قال -صلى الله عليه وسلم-:

"ما من مسلم يدعو الله بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث: إما أن تُعجّل له دعوته، وإما أن يدخرها له في الآخرة، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها".

وفي عُجالة أقف معك على معنى الحديث:

لا يدعو بإثم: لا يدعو بأن يوفقه الله في معصية.

ولا قطيعة: لا يدعو بهجر قرابته ورحمه.

يعجل له دعوته: وهذا ربح مرئي بقضاء غايته.

يدفع عنه السوء: يحجب عنه ما لا يرجوه، ويحفظ الذي عنده.

يدخر له أجرًا: يجد له حسنات على دعوات لم تُقضَ.

لك واحدة من ثلاث، فكرر حاجتك ولا تخجل.

"إن الله يحب اللحوح في الدعاء".

وعدتك سابقًا أن أبحث معك في السور الثلاثة عن اسم الله الأعظم، تتبع العلماء الاسم المكرر في هذه السور، فكان الحي القيوم.

تحذير هام:

لا تتعجل وتندفع وتثور وتدعو على نفسك بالموت وتجارتك بالخسارة، أو تدعو بالويل والثبور على ولدك، فاجعل دعوتك له بالهداية وصلاح الحال.

قال -صلى الله عليه وسلم-:

"لا تدعوا على أنفسكم ولا تدعوا على أولادكم ولا تدعوا على أموالكم، لا توافقوا من الله ساعة يُسأل فيها عطاء فيستجيب لكم".

سل الله من فضله ومن خيري الدنيا والآخرة، ولا تجور في دعائك، فقد كان من دعائه -صلى الله عليه وسلم-:

"اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك وتحول عافيتك وفُجأة نقمتك وجميع سخطك".

وها أنا أبوح لك بآخر ما في جعبتي:

"اذكرني عند ربك"

قال ابن تيمية: أسرع الدعاء إجابة دعاء غائب لغائب. ولك بمثلها.

شيطانة أم ريحانة؟

مر شاعر بنسوة فأنشد:

إن النساء شياطين خُلقن لنا نعوذ بالله من شر الشياطين

فردت عليه إحداهن:

إن النساء رياحين خُلقن لكم وكلكم يهوى شم الريـاحـين

فمتى تكون المرأة شيطانة تهوي بك في النار؟

ومتى تكون المرأة ريحانة تسكن بك الجنة؟

كان رجل من السلف كلما تعارَّ ليلًا وجد زوجته تصلي.

فيقول لها: يا أمة الله ألا تنامين؟

فترد قائلة: كيف ينام من من علم أن حبيبه لا ينام.

قيل للنبي -صلى الله عليه وسلم-:

إن فلانة صوامة قوامة، ولكن تؤذي جيرانها بلسانها.

قال: لا خير فيها، هي في النار.

قالوا: وفلانة تصلي المكتوبة وتتصدق بأثوار "جبن غليظ " ولا تؤذي أحدًا.

قال: هي من أهل الجنة.

باع الحسن بن صالح جارية له، فلما انتصف الليل قامت فنادتهم:

يا أهل الدار، الصلاة.

فقالوا: طلع الفجر؟

فقالت: لا، أنتم لا تصلون إلا المكتوبة؟

ثم رجعت إلى الحسن، وقالت بعتني إلى قوم سوء، لا يصلون إلا المكتوبه، رُدّني.

يقول أعداء الدين: كأس وغانية يفعلان في الأمة المحمدية ما لا يفعله ألف مدفع.

كان حاكم متجبر كلما وقف في شرفة قصره ورأى الملتحفات بالسواد غضب، وقال: حتى متى أرى هذه الغربان السود في بلدي؟ حارب الحشمة واضطهد العفة، فتردت بلده في مستنقع العهر، وتباهت كالجاهلية الأولى بالرايات الحمر، فسقطت دولته لأجيال متعاقبة، ولم تنتبه إلا منذ عهد قريب.

وقد روي "المرأة عورة، فإذا خرجت استشرفها الشيطان" أي زينها الشيطان ليوقعها في الفتنة أو يوقع بها الرجال.

أنشد أمير الشعراء:

الأم مدرسة إن أعددتها أعددت شعبًا طيب الأعراق

يرحم الله أيامًا كانت المرأة تقول لزوجها في الصباح: اتقِ الله فينا، ولا تطعمنا إلا من حلال، فإنا نصبر على الجوع في الدنيا، ولا نصبر على النار يوم القيامة.

فإذا عاد آخر النهار سألته: كم نزل اليوم من القرآن، وكم حفظت من حديث رسول الله، فإذا جنّ الليل تزينت بماء الوضوء ودخلت مخدع زوجها، فإن كان له حاجة قضاها، وإن لم يكن له حاجة قالت: أتأذن لي أن أقوم الليلة بين يدى ربي.

ذكر بن كثير في البداية والنهاية:

في حصار إحدى بلاد الروم نظر أحد المجاهدين الذي كان يؤمهم في الصلاة إلى امرأة من نساء الروم فوقع في قلبه حبها فراسلها: كيف

السبيل إليك؟ فقالت: أن تتنصر وترتقي سور الحصن، ففعل وباع دينه لأجل امرأة، اغتم الجيش لأمره، وبعد سنوات رآه أحد أصحابه داخل الحصن مع تلك المرأة فناداه ما فعل علمك وصيامك، وما فعل قرآنك؟

فقال: إني نسيت القرآن كله إلا قوله: "ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين* ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويُلهِهم الأمل فسوف يعلمون"، وقد صار لي فيهم مال وولد. فمكث بينهم حتى هلك.

شيطانه بحث في ربوعها عن الجنة، ونسي جنة الآخرة.

سعيد بن المسيب زوج ابنته لتلميذه كثير بن أبي وداعة، فلما قضى معها أسبوعًا أراد أن يخرج، فسألته إلى أين؟ قال: إلى درس سعيد، فقالت: اجلس وأنا أعلمك علم سعيد، وكانت من أحفظ الناس لكتاب الله وأعلمهم بالسنة. خطبها الوليد بن عبد الملك، فأبى سعيد وزوجها لطالب عنده على درهمين، وفي ليلة البناء مشى سعيد وهى خلفه تتبعه حتى زفها لزوجها، لم يكن هناك أسطول من السيارات، ولم يكن حفل الزفاف أسطوري ترصده كاميرات العالم وكبريات الصحف كانت ليلة صامتة، لم يتغنَّ فيها ملوك الطرب ولم ترتدِ العروس فستانًا مرصعًا بالماس، ولم تشدوا مع العزف بحكاية حب فلم تره إلا الآن، ولم تصفق وتتمايل وترقص حتى سقطت، بل لم تسقط إلا من الحياء حين دفعها سعيد، وأغلق الباب ووجدت نفسها مع رجل لم تألفه، فلم تتهيأ للأمر،

فحجبتها أمه ثلاثة أيام تصلحها، وبشهادة الرجل كانت من أجمل النساء جمالًا لم يُصنع بعدسات لاصقة أو أدوات تجميل. وبعد شهر قابله سعيد فسأله عنها، فقال: بخير حال. فقال سعيد: إن رابك منها شيء فالعصا، ثم أرسل له بعشرين ألف درهم ليستعن بها على معيشته.

هل وقع الطلاق بعد ستة أشهر نتيجة لعدم التوافق؟

التقية التي تربت على القرآن والسنة لن يجد منها زوجها إلا السمع والطاعة، فهي تعلم لزوجها حقه فيمسكها بمعروف، وقد قالت امرأة تماثلها في التقوى: ما كنا نكلم أزواجنا إلا كما تكلمون أمراءكم. ريحانة شبت على الإيمان فتعطرت جنبات بيتها بشذاها، وقد قيل إن المرأة الصالحة إذا سكنت البيت سكن البيت.

أوصى أبو الأسود الدؤلي ابنته:

إياك والغيرة، فإنها مفتاح الطلاق، وعليك بالزينة وأزين الزينة الكحل، وعليك بالطيب وأطيب الطيب إسباغ الوضوء.

جاءت فتاة إلى الإمام أحمد بن حنبل وقالت: إنا نغزل على ضوء السراج فتمر بنا دوريات العسكر، فنغزل على ضوئهم فهل هذا حرام؟

فبكى الإمام وقال: من أنت يا بُنيتي؟

فقالت: أنا أخت بشر الحافي.

فقال الإمام: من بيتكم يخرج الورع الصادق، كل الناس يغزلون على ضوء العسكر إلا أنتم.

بكى الإمام لتورع الفتاة عن الحرام، فأجابها بقدر صلاح بيتها وقال: لا تغزلي، وإن كان الأمر يجوز.

في محافظة ساحلية قبضت الشرطة على رجل وشقيقته بينهما علاقة محرمة، وقد أنجبا ثلاثة أولاد، وتعجبت من ضمائر عاشت في السبات، ألم توافِ المنية أحد جيرانهم أو ذويهم طيلة هذه السنوات فيرتدعوا؟ أو يُقبل عليهم شهر رمضان فيستقبلوه بتوبة وينتهوا، كيف سكنت في قلوبهم اللذة وهم أشقاء "أولئك كالأنعام بل هم أضل" وبعد القبض قالت المرأة هو أخي وزوجي وحبيبي، وإن حكمتم عليه فاعدموني معه.....

يقول النبي -صلى الله عليه وسلم-:

"كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته... والمرأة راعية على بيت زوجها وولده ومسؤولة عن رعيتها".

لو رضيت الأم من أبنائها التقصير فى حق الله بالتهاون في الصلاة واجتناب المحرمات مع الأيام سيقصر الأبناء في حقها.

أم تجد في بناتها التبرج، ولا تنصحهن أو يستخففن بالقيم، ولا تنكر عليهن، ستكون موضع مسائلة يوم القيامة "إن الله سائل كل راع عما استرعاه أحفظ أم ضيع".

أنا لا أُعفي الوالد من المسؤولية، لكن ليس من فراغ أن تكون الجنة تحت أقدام الأمهات، وَلَهُنَّ أولًا حق الصحبة الحسنة.

فالجيل الذي تُرك للشوارع تحتضنه وتتبناه، ولرفقة السوء تتعهده وترعاه في الغد القريب لن تراه إلا ملتحفًا بالفساد والضلال، فالله الله في الأجيال القادمة، فشتان بين أم كانت تحمل صبيها على كتفها لتذهب به إلى شيخه وتخوض قدماها في وحل الشتاء، فلما اشتد عوده صار داعية يُشار له بالبنان، وبين أخرى شغلتها الموضة وصيحات الأزياء عن غرس القيم النبيلة في نفوس أبنائها، فتاهت خطاهم وزاغت نفوسهم. فما التفت بهم يومًا حول كتب السيرة أو مأدبة القرآن فما اجتمعوا إلا حول فنٍ هابط أو إعلام تافه أو رقص وألحان.

يقول الإمام أحمد -رحمه الله-: حفظتني أمي القرآن وأنا ابن عشر سنين، وكانت تحمي لي الماء لأتوضأ في ليال بغداد الباردة، وتُلبسني معطفي وتلبس حجابها وتذهب بي لصلاة الفجر، فلما بلغت السادسة عشرة قالت: اذهب يا بني في طلب الحديث، فإن السفر في طلب الحديث هجرة إلى الله الواحد الأحد. هكذا يُصنع الرجال.

قرأت منذ سنوات مضت في جريدة المساء التابعة لمؤسسة التحرير رسالة واردة إلى صفحة "قلبي يسأل" كان صاحب الرساله شابًا يحكي مشكلته أو بالأحرى جريمته التي كان فيها جاني وضحية على السواء، وكانت حكايته كما أرسل وقد هذبتها ما استطعت.

"توفت أمي وأنا في العاشرة من عمري فتزوج أبي بعد وفاتها بقليل، وكانت زوجة أبي تجعلني أنام في فراشها مع والدي اجتزت سن البلوغ، فكان أبي ينصرف إلى عمله وتجعلني أختلي بها، كنت أشعر بتأنيب ضميري، وسرعان ما أعود إليها ولدت ثلاث أبناء، وصرت على أعتاب العشرين دفعت شيطاني، وقررت هجرها، فهددتني وقالت سأخبر والدك بما كنت تصنعه معي، ووالدك عاجز والأبناء الثلاثة منك، ولن يتحمل والدك الصدمة وسيموت قهرًا.

شيطانة ربته حملًا صغيرًا، فصار وغدًا، ولما أراد أن يتطهر قطعت عليه طريق الرجعة.

التمس لي العذر إن خدشت حياء نفسك الطاهرة بعفن الساقطات، وعد معي إلى تلك الريحانة التي أخبرنا النبي عن رحمة الله لها:

"رحم الله امرأة قامت من الليل فصلت فأيقظت زوجها، فإن أبى نضحت في وجهه الماء".

امرأة ليلها في طاعة الله، فلن يختلف عن ذلك نهارها ستجدها صوامة كما كانت بالليل قوامة لن تُبال بأمر جيرانها أو تريند الأحداث من حولها، كل ما يشغلها وِرْدها والتقرب لربها كلامها ذكرٌ وصمتها فكرٌ، تصنع طعامها بالتسبيح تارة وبالاستغفار أخرى، بيتها تحصنه بالأدعية والأذكار، وتسرد على مسامع صغارها قبل النوم قصص الصحابة

والتابعين الأخيار، وحين تخرج من بيتها تخرج غارقة في حشمتها، لو ركبت حافلة وسمعت فيها صوت عزف ومزمار لتملكتها الشجاعة لتطلب من السائق أن يكف هذا الدنس عن سمعها، فما اعتادت إلا على آيات الذكر الحكيم الذي به تطمئن الروح وتسمو الخاطرة والأفكار.

مطرب مصري شهير ذهب إلى حفلة في مهرجان جرش بالأردن، فلما تغنَّى بأغانيه العاطفية أصيبت سبعٌ وعشرون فتاة بحالات إغماء.

وصدق العلماء إذ يقولون: لو أن المرأة تحمل من شيء غير ماء الرجل لحملت من الغناء، فانظر إلى مدى التأثير الفسيولوجي للمرأة من وقع الغناء والألحان.

جاءنا البيان التالي على لسان أحد مشاهير الدعاة في مصر عن حالتين بينهما أمدٌ بعيدٌ من الإيمان، وسأدع له الحديث فهو أفصح مني لسانًا.

يقول الشيخ: أتاني أحد الشباب وقال: والدتي تريد منك أن تتكرم بزيارتها. فذهبت إليها وسألتها عن أخبارها وعن حاجتها، فقالت: ادع لي يا شيخ، فمنذ ثلاثة أيام لم أرَ النبي في المنام، فسألتها وأنا مندهش وماذا تصنعين لتري النبي -صلى الله عليه وسلم- في منامك؟ قالت: أصلي عليه في اليوم ثلاث آلاف مرة. فتعجبت من أمرها وقلت لها: أنا أحوج إلى دعائك.

لم يمر على تلك الواقعة أكثر من عشر سنوات، امرأة ليست من المشاهير أو الصفوة اللاتي لهن باع في مجال الدعوة ترى النبي كل ليلة في منامها، ولما غاب عنها في الليالي الثلاث الأخيرة سألت الشيخ الدعاء.

امرأة ربما لم تحظَ بقدر من التعليم، ولكنها حازت شرف رؤية خير الأنام، لا نعرف لها اسمًا أو نسبًا، لكن يكفيها أن خير الخلق يعرفها، هذا الشرف لم يأتِ من فراغ إنما أتى بحبها له، فمن يُحب تجده يُكثر من ذكر محبوبه.

ربما المرأة ما داعبت يومًا أصابعها ماكينة الصرف، ولم تقرأ كتابًا من كيندل أو تشتري لبيتها من متجر كبير، وما ضرها ذلك، فيكفيها أن عينيها اكتحلت بهذا النور "ولقد جاءكم من الله نور وكتاب مبين".

ريحانة يا حظ من عاش في كنفها.

أما عن الحالة الثانية، فقد قال الشيخ عنها:

رجل من أهل الفضل ميسور الحال، تجاوز الخمسين من عمره أخبر زوجته برغبته في الزواج بأخرى، فظنت أنه يمازحها وحين رأت عزمه على الأمر تبرمت وغضبت، وبعد أيام حين عودته إلى بيته في المساء، استقبلته زوجته وأخذت بيده إلى غرفة نومه، فتفاجأ الرجل بفتاة

جميلة ترتدي ثوبًا شفافًا في الغرفة، فتعجب وسأل زوجته عنها فقالت: اصنع ما بدا لك معها، ولا تتزوج بأخرى.

أحل الله النكاح وحرم السفاح، فبأي عقل تفكر تلك الزوجة تأخذ بيد زوجها إلى هذا الدنس لتمنعه من حق مشروع، ولا تُبال بعاقبة الأمور، فغضب الله ليس بعيد عن زوجها بشؤم معصيته لو آتاها، وإن لم يتب سيُلقى في تنُّور يُعذب مع الزناة، ويوم القيامة لا يكلمه ربه ولا يزكيه ولا ينظر إليه، وله عذاب أليم، كل هذا الويل بشهوة يضعها في حرام ليُرضي زوجته، فماذا لو استمرأ الأمر أو مات على الذنب، فليتها رضخت لرغبته، ولكنها أبت إلا أن تُرضي غرورها، وتُشبع حظ نفسها حتى لا يُقال تزوج عليها.

أنا لا أجد كلامًا أقوله غير ما ذكرت، ليس من باب العجز أو الكلالة، ولكن الحديث عن واقعة بذاتها، فأخشى أن تقرأ صاحبة الواقعه كلماتي، وقد نُهينا عن العلاج بالكيّ.

ولكني سأذكر واقعة من زمن مختلف وطبيعة المرأة غالبًا لا تتغير بتغير الزمان.

تاجر ببغداد تزوج من ابنة عمه فرزقه الله منها بولد، ثم تزوج بأخرى ولم يُخبر زوجته الأولى، وبقي على ذلك أشهر، فأنكرت أم ولده تغير أحواله، فطلبت من جاريتها أن تتبعه إذا خرج من السوق فتبعته حتى دخل بيت زوجته الثانية، فتكلمت مع الجيران وسألتهم عن الدار

فقالوا دار فلانة قد تزوجت بتاجر منذ شهور، عادت الجارية إلى سيدتها وأخبرتها، فطلبت منها الأ تُخبر أحدًا عن زيجته الثانية، ولم تظهر لزوجها شيئًا وعاشت معه بالمعروف، وبعد عام مرض الزوج ومات، وترك ثمانية آلاف درهم، للابن سبعة منها، وألف للزوجتين، فأرسلت مع الجارية لزوجته الثانية نصيبها من تركته، فلما أتت الجارية الزوجة الثانية، وأخبرتها بأن الرجل قد مات انهمرت منها الدموع، وقالت للجارية ردي المال لسيدتك، وأخبريها بأن الرجل قد طلقني، فأنا لا أستحق من ماله شيئًا.

فلست أدري من أي صنيع أعجب.

يقول عمر الفاروق -رضي الله عنه-:

النساء ثلاثة:

امرأة صالحة تعين على أمر الدين والدنيا.

وامرأة أم للبيت والأولاد.

وامرأة غلّ تُعكر عيش زوجها.

يقول الحسن البصري: وقفت على بزاز "بائع ثياب" أشتري منه بمكة، فأخذ يمدح ويحلف، فتركته وقلت لا ينبغي الشراء من مثله، واشتريت من غيره.

ثم حججت بعد ذلك بسنتين فوقفت عنده فلم يمدح أو يحلف، فقلت له: ألست الرجل الذي وقفت عليه منذ عامين؟ قال: نعم.

فسألته: وأي شيء أخرجك إلى ما أرى، فإنك لا تمدح ولا تحلف.

فقال: كان لي امرأة إن جئتها بقليل احتقرته، وإن جئتها بكثير قللته، وافتها المنية، ورزقني الله بغيرها، فإذا أردت الغدو إلى السوق أخذت بمجامع ثوبي، وقالت: اتقِ الله فينا ولا تطعمنا إلا طيبًا، فإن جئتنا بقليل كثرناه، وإن لم تأتِ بشيء أعناك بمغزلنا.

ريحانة تأخذ بيد زوجها إلى الجنة، لا تُبال بكد العيش وشظفه فتتحمل عسرة الأيام وتحمد الله ربها على ما قل وكثر، ولا تخدعها زخارف الدنيا عند من حولها، فربما عُجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا، وعلى الضد تجد أخرى تُكلف زوجها ما لا يطيق فيقترض وتتكالب عليه الديون لتُشبع حبها للتملك وهوس الشراء، ليس لها هدف جاد في الحياة، ولا فكر ناضج يرشدها، تنتابها الغيرة من قريبتها أو تملأ عينيها بما عند جارتها، فتكثر مطالبها، وتنسى أن التدبير نصف المعيشة، وإن تأفف زوجها أو عارضها تمنعت عليه، وأبت أن تأتي فراشه، فيغضب وتلعنها الملائكة حتى الصباح.

سأل زياد بن أبيه جلساءه: من أنعم الناس عيشة؟

فقالوا: أمير المؤمنين.

فقال: لا، ولكن رجل مسلم له زوجة مسلمة لهما كفاف من العيش، قد رضيت به ورضي بها، لا يعرفنا ولا نعرفه.

قال -صلى الله عليه وسلم- لأحد أصحابه:

" ألا أخبرك بخير ما يكتنز المرء؟ المرأة الصالحة إذا نظر إليها سرته، وإذا أمرها أطاعته، وإذا غاب عنها حفظته".

ريحانة يفوح شذاها في بيت زوجها، تفرح لفرحه وتحزن لحزنه، تتقي الله فيه وتعينه على أمر دينه ودنياه، إن حدث بينهما شيء لا يغمض لها جفن حتى تراجعه، تراعي له حقه وتحفظ له غيبته.

وربما تجد شيطانة تخون زوجها في حضرته، ذكر ابن الجوزي في كتابه أخبار الأذكياء أن امرأة كانت تعيش في البادية كان لها زوج جاور عقله السذاجة، وقد اتخذت عشيقًا تجرأ يومًا عليها وقال لها: إن لم تمكنيني من نفسك أمام زوجك هجرتك، فأرادت أن تحتال في الأمر، فقالت لزوجها: إني لأشتهي الرطب، فقال لها سأصعد النخلة، وآتيك بشيء منه، قالت لا: دعني أرتقي النخلة فصعدت وارتفعت، وإذ بها تصرخ وتقول: يا فاجر من هذه المرأة التي تُجامعها أمام عيني، ثم نزلت، وهي في أوج غضبها المزيف فتعجب الزوج من قولها، وظل يُقسم لها بأغلظ الأيمان أنه لم يصنع شيئًا، ولم تكن معه امرأة، وربما خدعها بصرها تظاهرت بالهدوء، وسكن الزوج، وبقي في نفسه شيء من غضبتها، طلبت منه أن يرتقي هو النخلة، وأرسلت لعشيقها أن يحضر فأتاها، وغشيها فنظر زوجها، فرآها على هذا الحال، فظن أن بصره قد خدعه هو الآخر، فقال لا عليك من غضبتك.

شيطانة ليس بوسع إبليس إلا أن يجلس بين يديها ليتعلم منها طرق الغواية، على مرأى منه تمرغ شرفه في الوحل، فماذا لو غاب عنها؟ أي فجور كانت تصنع فوق ذلك؟

تروي إحدى المغسلات: اتصلت بي إحدى العائلات لحضور غُسل ميتة لديهم، فذهبت وحين دخلت الغرفة أغلقوا باب الغرفة بالمفتاح، وعندما بدأت في الغُسل إذ بلحم المرأة يتفتت في يدي، وكأنه قطن، فظننت أن المرأة ماتت مقتولة، فطرقت باب الغرفة، فلم يفتح أحد فشعرت برهبة، فقرأت بعض الأدعية حتى أبحرت السكينة في جوانحي، ثم كشفت وجه المرأة، وقد غطوه بأكثر من شيء، فإذ بوجهها شديد السواد، وكأنه قطعة فحم، انتابتني المخاوف مرة أخرى، ولكني أكملت الغسل احتسابًا للأجر، طرقت الباب ليفتحوا وأخبرتهم بانتهاء الغسل، فتعجبوا، ولم يصدقوا حتى رأوا المرأة مدرجة في أكفانها.

خرجت مسرعة إلى بيتي وبقيت ثلاثة أيام لا أهنأ بنوم أو طعام، ولم أكف عن البكاء.

اتصلت بأحد العلماء وأخبرته بما رأيت، فقال لي: أما السواد فربما كانت لا تصلي، وأما تفتيت اللحم فكانت متبرجة.

ذهبت أعزي أهلها، فسألتهم: لمَ أغلقوا الباب؟ فقالوا جاءتنا ثلاث مغسلات قبلك، ولكنهم فزعوا من سواد وجهها، وانصرفوا مذعورين.

ثم سألتهم عن حال المرأة فأخبروني في طيات كلامهم بأنها لم تكن تصلي أو تتحجب.

قال -صلى الله عليه وسلم-:

"صنفان من أهل النار لم أرهما

وذكر: "... ونساء كاسيات عاريات مائلات مميلات رؤوسهن كأسنمة البُخت المائلة، لا يدخلون الجنة ولا يجدون ريحها".

لم يرَ النبي هذا الصنف من النساء في زمنه، فأخبر بأنهن يرتدين الملابس الضيقة التي تشف وتصف.. مائلات عن العفة والاستقامة.. مميلات يدعين غيرهن إلى الشر والفواحش.

وما يؤلم القلب أن من اشترى لها الملابس الفاضحة، وكان بصحبتها زوج لا يغار، أراه على باب الدياثة يقف، فلن يجد ريح الجنة، أو أب بات غاشًّا لرعيته فحجب عنهن تعاليم الدين وإرثهن من الفضيلة.

حين هدأت سكينة تسونامي ذهب أحد الدعاة يتفقد أحوال تلك البلدة التي تنتسب للإسلام فسمع من أمرهم ما أفزعه، يذهب الأب للمسجد ويترك ابنته مع صديق لها في البيت، فأي انتكاسة شر من هذه؟ انتشر العريّ بساحلها، وسهل أمر الفاحشة، فغار الجبار في سمائه وأذن بهلاكها.

قال عطاء بن رباح: قال لي ابن عباس:

ألا أريك امرأة من أهل الجنة؟ قلت بلى، قال هذه الأمة السوداء، أتت النبي -صلى الله عليه وسلم- وقالت: إني أصرع وإني أتكشف، فادع الله لي، قال: إن شئت صبرت ولك الجنة، وإن شئت دعوت الله أن يُعافيك، قالت: أصبرُ.

قالت: إني أتكشف، فادع الله أن لا أتكشف فدعا لها.

عذرًا إن لم أحدثك عن فضل الصبر وثواب المبتلى، فربما ضاق المقام، فما استرعى انتباهي أن المرأة ذكرت شكايتها الأولى مرة لكونها تُصرع، أما كونها تتكشف وهي تحت تأثير نوبات الصرع، كررت منه شكواها، فكان حقًا ما يؤرقها أن تنحسر الثياب عن بعض جسدها حينما تُصرع، وليس لها في ذلك حيلة، أبت الأمة السوداء أن تتكشف، وربما لا تملك ما تحرك به غرائز الرجال، ولكنه الحياء والفطرة السوية وبشاشة الإيمان التى خالطت القلوب، فحفظ الله عليها حياءها ولم تأتها نوبة الصرع إلا وهي متعلقة بأستار الكعبة أو ساجدة لربها.

دار الزمان دورته، فانتشر التعري والتبرج، وظنوه تحررًا ورقيًا، وانتشر الاختلاط فأتى صديق العائلة يدك حصونها شرقًا وغربًا، وقد قرأت عن عمارة في حي راقٍ يتبادل فيها الرجال زوجاتهن، وقد قالت هند بنت عتبة وهي حديثة عهد بجاهلية:

أَوَتَزْنِي الحرة؟

حكى رجل عن سر توبته، فقال: تحرشتُ بامرأة في الطواف. فالتفتت إلي، وقالت:

جئت من بلد بعيدة لأغسل ذنوبي هنا، فانظر يا عبد الله أين تغسل ذنوبك.

فرجاء وطلب ورغبة ومناشدة وبكل مفردة تأتي من هذا السياق.

أختاه، أغلقي كل الدروب إليك لعل مفتونًا يتوب.

الاجتهاد في الطاعة

قال -صلى الله عليه وسلم-:

"يا فاطمة بنت محمد اعملي، فإني لا أغني عنك من الله شيئًا"

فاعلم -يرحمك الله- أن الراحة لا تُنال بالراحة، ومعالي الأمور لا تنال بالفتور.

وقد جاء في سنن الترمذي:

"إن الله -تعالى- يقول: يا ابن آدم تفرغ لعبادتي، أملأ صدرك غنى، وأسد فقرك، إلا تفعل ملأت يديك شغلًا، ولم أسد فقرك".

صفوان بن سليم -رحمه الله- لو قيل له القيامة غدًا ما زاد شيء على ما هو عليه من العبادة.

قال -تعالى-: "فاستبقوا الخيرات".

اجعل لك همة وطموحًا لا تبرح عتبة الجنة، وترتقي إلى الفردوس، فإن نفس المؤمن غالية، والبعض يبيعها رخيصة، فلا تجعل لنفسك ثمنًا إلا الجنة.

الهمم العالية كنوز غالية:

يقول ربيعة بن كعب الأسلمي -رضي الله عنه-:

"كنت أبيت مع النبي -صلى الله عليه وسلم- فأتيته بوَضوئِه وحاجته، فقال: سلني يا ربيعة. فقلت: أسألك مرافقتك في الجنة.

فقال -صلى الله عليه وسلم-: أو غير ذلك؟ قلت: هو ذاك.

قال: فأعني على نفسك بكثرة السجود.

غاية ربيعة لم تكن الجنة فحسب، بل أراد رفقة النبي، فدله النبي على طريق العمل، فالرغبة وحدها لا تكفي وأوصاه بكثرة السجود.

ربما يدور بخلدك سؤال: لمَ لم يطلب منه النبي كثرة الصدقات أو الإكثار من تلاوة الآيات، وكلها في مضمار البر والطاعات؟

فاعلم -يرحمك الله- أنك لن تسجد لله سجدة إلا رفعك الله بها درجة "واسجد واقترب" فلكي ترتقي في الجنان وتجاور النبي العدنان، فعلى الراغب الامتثال للأمر "أعني على نفسك بكثرة السجود".

يقول الحسن البصري: من نافسك في دينك فنافسه، ومن نافسك في دنياك فألقها في نحره.

روى الطبراني في الأوسط، ولربما صح إسناده:

مر أبو هريرة بسوق المدينة، فنادى: يا أهل السوق ما أعجزكم؟ قالوا: وما ذاك يا أبا هريرة؟ قال: أنتم ها هنا وميراث النبي يُقسّم في المسجد، ألا تذهبون فتأخذون نصيبكم منه؟ فأسرعوا إلى المسجد، ثم عادوا، وكان أبو هريرة في انتظارهم، فقالوا: ذهبنا للمسجد فلم نجد فيه شيئًا يُقسم. فقال: وماذا وجدتم في المسجد؟ قالوا: وجدنا قومًا يصلون وقومًا يقرأون القرآن، وقومًا يتذاكرون الحلال والحرام، فقال أبو هريرة: ويحكم، فذاك ميراث محمد -صلى الله عليه وسلم-.

عليك بما يفيدك في الميعاد لعلك تنجو بها يوم التناد

أيسرك أن تكون رفيق قوم لهـم زاد وأنـت بغـير زاد

اجتهد سفيان الثوري في العبادة حتى أشفق عليه بعض أصحابه. فقالوا ترفق بنفسك يا سفيان، فقال :دعوني، فإنه قد بلغني: إذا دخل

أهل الجنة الجنة وأخذوا عطاياهم ونزلوا منازلهم، فإنه يسطع ضوء في الجنة تُضيء منه الجنة الثمانية، فيظن أهل الجنة أن الرب العلي قد تجلَّى لهم فيخرُّون في الأرض سُجدًا، فيُنادى عليهم: يا أهل الجنة أن ارفعوا رؤوسكم فليس هذا ما ظننتم، إنما هي حورية تبسمت في وجه زوجها.

قال ابن القيم: للعبد رب هو ملاقيه، وبيت هو ساكنه، فينبغي له أن يسترضي ربه، قبل لقائه، ويعمر بيته قبل انتقاله إليه.

لذا؛ كان أبو مسلم الخولاني يصلي حتى تتعب قدماه من تهجده، فكان يتناول سوطه ويضرب به قدمه، ويقول: قومي، فوالله لأزحفن بك إلى الجنة زحفًا حتى يكون الكلل منك لا مني.

إذا كانت النفوس كبارًا تعبت في مرادها الأجسام

فكان -رحمه الله- صادق العزيمة جادًا في إرادته، يدفع بنفسه إلى ما فيه سعادتها ليُحلّق بهمته نحو ما كان عليه الرعيل الأول.

وقد قال في ذلك:

أيظن أصحاب محمد أن يستأثروا به دوننا، والله لنزاحمنهم على الحوض زحامًا ليعلموا أنهم خلّفوا وراءهم رجالًا.

فإن استطعت ألا يسبقك أحد إلى الله فافعل، ولسان حالك: "وعجلت إليك ربي لترضى" فبادر وشمّر عن ساعد الجد، واقرأ عن اجتهاد الأولين لتجد على الطريق مُعينًا، فقد كان علي بن الفضيل يصلي

بالليل حتى إذا أراد أن ينام لا يقوى على السير لفراشه فيزحف، ويقول: يا أبي سبقني العابدون. وكان قتادة -رحمه الله- يختم القرآن في كل سبع ليال، وصام داوود الطائي أربعين سنة، ولم يعلم به أهله. وكان أويس القرني يلتقط كسرة الخبز من المزبلة فيغسلها ويأكل بعضها ويتصدق ببعضها، ويقول: اللهم إني أبرأ إليك من كل كبد جائع. وقد قال الله -عز وجل-: "منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة".

فلمَ ترضى بالفانية وتبع حظك من الله بعرض من الدنيا!!

رأى الحسن قومًا يزدحمون على حمل نعش رجل من الصالحين، فقال: في عمله تنافسوا، لا في حمله.

قال إبراهيم التيمي:

مثلت نفسي في الجنة آكل من ثمارها، وأشرب من أنهارها، وأعانق حورها وأبكارها.

ومثلت نفسي في النار آكل من زقومها، وأشرب من صديدها، وأعالج سلاسلها وأغلالها.

جلس يتخيل أنه يتقلب في نعيم الجنة، ثم تخيل نفسه يتعذب في النار، ثم عاد إلى نفسه يسألها: أي شيء تريدين؟

فحدثته نفسه بالعودة إلى الدنيا.

فقال: يا نفسي أنت في الأمنية فاعملي.

وقف الحسن البصري على شفير قبر وبجواره رجل فسأله الحسن: لو عاد صاحب القبر إلى الدنيا ما تراه يصنع؟

قال: يستغفر ويصلي.

فقال الحسن: هي فاتته فلا تفوتك.

الكسل منبت العجز والراضي بالدون دنيء، والجنة لا تُنال بالفتور، ومن لم يتبصر عواقب الأمور عض يديه يوم النشور، فالعاقل من يأخذ من يومه لغده، قبل أن يخرج الأمر من يده.

أسلم رجل كان عابدًا لصنم، فقال لمن أسلم على أيديهم حين رآهم بعد أن صلوا العشاء أخذوا مضاجعهم:

هل هذا الإله الذي دللتموني عليه ينام؟

قالوا: هو عظيم قيوم لا ينام.

فقال: بئس العبيد أنتم تنامون ومولاكم لا ينام.

من أصبح منكم اليوم صائمًا؟

لم أطرح عليك السؤال، بل طرحه النبي على أصحابه والحديث مشهور، ويعلمه الكثير، ولكن ما استرعى انتباهي أن ما صنعه أبو بكر - رضي الله عنه- كان ما بين أذان الفجر حتى الإقامة، فقد اتبع جنازة وأطعم مسكينًا، وعاد مريضًا وجده في المسجد، كما تقول بعض الروايات.

فما تراه كان يصنع بقية يومه؟ كان على درب الطاعات يعدو في سباق دائم نحو الخيرات حتى استحق تلك البشرى، أبواب الجنة الثمانية ستناديه يوم القيامة.

تخطى أبو أيوب الأنصاري التسعين من عمره، وحين سمع قول منادي الجهاد يا خيل الله اركبي، أراد أن يقوم ويتهيأ للغزو، فقال له أولاده: أنت شيخ كبير وقد عذرك الله، فقال -رضي الله عنه-: وهل أبقت لنا آية النفير جنبًا ننام عليه.

"ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض"

فخرج، وعند أسوار القسطنطنية زادت عليه العلة، فأرسل لقائد الجيش يزيد بن معاوية، فأتاه، وقال: ما حاجتك يا أبا أيوب؟ فقال: ادفنّي عند أسوار القسطنطينية، فإني سمعت رسول الله يقول: " يُدفن عند أسوار القسطنطنية رجل صالح" وإني لأرجو أن أكون أنا هو، وما زال قبره هناك شاهدًا على علو همته، وما زالت الشهادة قائمة في حقه بأنه رجل صالح.

إذا أردت أن تعرف عند الله مقامك فانظر فيما أقامك، وقد قال الحسن -رحمه الله-: المؤمن في الدنيا كالأسير، يسعى في فكاك رقبته.

نام سليمان الداراني وهو يصلي قيام الليل، فرأى في منامه حوراء تركضه برجلها، وتقول: أترقد وأنا أربّى لك في الخدور منذ كذا وكذا، فقال: وثبت وقد عرقت استحياء من توبيخها لي، وإن حلاوة منطقها لفي سمعي وبصري.

بيت في الجنة:

قال ابن تيمية: من أراد السعادة الأبدية فليلزم عتبة العبودية.

كم تحتاج من المال أو تستغرق من الوقت لتبني بيتًا جديدًا، وبعد ردح من الزمن ستنتقل من دار إلى دار، وتدع البيت. فهل تأذن لي أن أقدم لك عرضًا لتمتلك بيتًا يبقى لك أبد الدهر، في البداية من حقك أن تسأل عن بعض الأمور، موقع البيت وقدر المساحة والحالة التى عليها.

لا أخفيك سرًا الموقع متميز، فربما كان البيت على شاطئ نهر الكوثر، أو في جنات عدن تصل مساحة البيت ستين ميلًا وقد تم بناؤه بالذهب والفضة، لو بنينا بيتًا على هذا النحو في الدنيا لبرك اقتصاد العالم على ركبتيه، ولكنه النعيم المقيم، وستجد المسك يفوح من جدرانه، حيث ما بين لبنة من فضة وأخرى من ذهب ملاط منه، أحطك علمًا بكل التفاصيل.

وبقي الحديث عن شيء واحد، الثمن المطلوب.

"من بنى لله مسجدًا بنى الله له بيتًا في الجنة".

"من ثابر على ثِنتي عشرة ركعة من السنة بنى الله له بيتًا في الجنة: أربع ركعات قبل الظهر وركعتين بعدها، وركعتين بعد المغرب، وركعتين بعد العشاء، وركعتين قبل الفجر".

"من قرأ (قل هو الله أحد) عشر مرات بنى الله له بيتًا في الجنة"

"من سد فرجة بنى الله له بيتًا في الجنة ورفعه به درجة"

قال -صلى الله عليه وسلم-: "أنا زعيم بيت في ربض الجنة لمن ترك المراء ولو كان محقًا، وبيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحًا، وبيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه".

زعيم أي ضامن، ربض الجنة أي أدناها، المراء أي الجدل.

إن لم تكن رغبتك في النعيم دافعًا قويًا لك ومحفزًا فاجعل خوفك من النار شعلة تُضيء في نفسك السعي.

ثابت البناني كان يمكث في المسجد بعد العشاء يصلي، وإذا غلبه النوم هجع، ثم قام وصلى، فكانت ابنته الصغيرة تفتقده في البيت، فتذهب إليه في المسجد، وتقول: يا أبتاه كل الناس ينامون في بيوتهم إلا أنت.

فيقول لها: يا بنيتي، حر النار أذهب عن أبيك حب النوم.

قال أحمد بن حرب: عجبت لمن علم أن الجنة تُزين من فوقه والنار تُسعر من تحته، كيف ينام بينهما.

"من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل ألا إن سلعة الله غالية ألا إن سلعة الله الجنة".

فالجنة لا تُنال بالتمني، ولكن بالعمل الصالح، فاحذر أن يكون حظك من العبادة مجرد رغبة، فتلك بضاعة المُفلسين؟

ولا تجلس إلى أهل الدنايا فإن خلائق السفهاء تُعدي

قال رجل لابن سيرين: رأيت في منامي أني أسبح في غير ماء، وأطير بغير جناح، فما تأويل ذلك؟

فقال له: أنت رجل كثير الأماني والأحلام.

الرجل اصطف مع أهل الأماني في معسكرهم، وقد قال الحسن البصري في شأنهم: إن أقوامًا خرجوا من الدنيا ولا شيء لهم يقولون: كنا نُحسن الظن بالله، وقد كذبوا، لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل.

قيل لأحد العباد الذين يبذلون في الطاعة جهدهم: لمَ تعذب هذا الجسد؟ قال: كرامته أريد.

فمن يرجو لنفسه السعادة عليه أن يجر نفسه بسلاسل القهر إلى العبادة، فهذه هي الكرامة التي يسعى لها كل مجتهد، لذا قيل: من طلب الراحة ترك الراحة.

جاء رجل إلى الإمام أحمد، وقال:

متى الراحة يا إمام؟

فقال: مع أول قدم في الجنة.

فليست الراحة في جمع المال أو تزويج البنات أو سداد أقساط، بل في جنة عرضها الأرض والسموات.

قال أحد السلف: يا ابن آدم، إنك تغدو وتروح في طلب الأرباح، فليكن همك نفسك، فإنك لن تربح مثلها أبدًا.

"إن الله اشترى من المؤمنين...".

هلّا سألت نفسك ما عندك ليشتريه الله منك..

بيت وسيارة ومصنع و....

أخي الكريم: "لله ميراث السموات والأرض".

تعالَ نُكمل الآية:

"إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة".

يقول ابن عباس:

أنفس هو خلقها وأموال هو رزقها، ثم يأخذها ويُعطينا الجنة ربح البيع.

قال عمر بن عبد العزيز في حجة حجها حين تدافع الناس من عرفة: ليس السابق اليوم من سبق به بعيره، إنما السابق من غُفر له.

لن يُغفر لك إكرامًا لسواد عينيك، ولكن بادر بالخير من نفسك اليوم لنفسك غدًا

أنت الذي ولدتك أمك باكيًا والناس حولك يضحكون سرورًا

فاعمد لعمل تكون إذا بكوا في يوم موتك ضاحكًا مسرورًا

أنا أحسن بك الظن، ولعلك عند الله خير مني، لكني أعظ نفسي وإياك، احذر أن يجتمع عليك سكرة الموت وحسرة الفوت.

وقد قال الحسن: ابن آدم لا تغتر بقول القائل المرء مع من أحب، إنه من أحب قومًا اتبع آثارهم، ولن تلحق بالأبرار حتى تأخذ بهديهم، وتقتدي بسنتهم، وتصبح وتمسي على منهاجهم.

سُئل أحد السلف عن سبب ثقل الحسنة وخفة السيئة، فقال: لأن الحسنة حضرت مرارتها وغابت حلاوتها، فلذلك ثقلت فلا يحملنك ثقلها على تركها.

والسيئة حضرت حلاوتها وغابت مرارتها، فلذلك خفت فلا تحملنك خفتها على ارتكابها.

قسوة القلب

قال ابن القيم -رحمه الله-:

خُلقت النار لإذابة القلوب القاسية، وأبعد القلوب من الله القلب القاسي، وما ضُرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة القلب، والبعد عن الله.

شاب يقود سيارته وبجواره شقيقه، انتبها إلى حادثة مروعة فنزلا من السيارة، فلما رأى أحدهما الأشلاء والدماء بكى بحرقة، والآخر لم يتأثر بشيء.

فلماذا بكت عين وجفت الأخرى؟

أكملا طريقهما، وحان وقت صلاة العصر، وبعدما فرغ الإمام من الصلاة، ألقى في نفوس المصلين موعظة بليغة، وجلت منها القلوب، فانحدر الدمع من أحدهما، والآخر لم يتحرك فيه ساكن.

فلماذا بكت عين وجفت الأخرى؟

قال -تعالى-: "ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة".

قست قلوبكم: اشتدت وغلظت، فلم تؤثر فيها الموعظة، فصارت كالحجارة في صلابتها.

من أين أتت القسوة؟

سأدع يحيى بن معاذ يسرد المبررات ويأتيك بالحجج لتعلم كيف تراكمت الحجارة في صدرك.

ما جفت الدموع إلا لقساوة القلوب، وما قست القلوب إلا لكثرة الذنوب، وما كثُرت الذنوب إلا من كثرة العيوب، وما كثُرت العيوب إلا بالاغترار بعلام الغيوب.

وقد قال -عز وجل- عن أثر المعاصي:

"كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون".

وقد تكون من الله عقوبة:

"فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية".

قال -صلى الله عليه وسلم-:

"ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله".

حدث غير مرة بأن جهاز استقبال الستالايت لديك انقطع إرساله لضعف الإشارة، وقد تكون العوامل المحيطة تسببت في ذلك.

ربما تتعجب في نفسك ما الذي أخرجنا من حيز القلوب إلى فضاء الأقمار الصناعية.

قلبك أشبه بجهاز استقبال، فربما سمعت موعظة ولم تتأثر أو حضرت جنازة ولم تعتبر.

ما السبب في ذلك؟

الإشارة ضعيفة.

ولمَ اعتراها الضعف؟

"إن العبد إذا أخطأ خطيئة نُكتت في قلبه نكتة سوداء، فإذا هو نزع واستغفر وتاب صقل قلبه، وإن عاد زِيد فيها حتى تعلو قلبه، وهو الران الذي ذكره الله: "كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون".

خطايا وذنوب ومعاصٍ تراكمت على القلب حتى تكونت طبقة سوداء، أحاطت بالقلب من الخارج، فحجبت عنه إشارة الموعظة وقرع الآيات.

ولا يفوتني في هذا المقام أن أذكر ما رواه الترمذي في سننه:

"نزل الحجر الأسود من الجنة وهو أشد بياضًا من اللبن، فسوّدته خطايا بني آدم".

فإن كانت الخطايا أثرت في الحجر الصلد فتأثيرها في القلب أشد.

أضاف بن القيم -رحمه الله- في هذا السياق ما ننتفع به حيث قال:

مفسدات القلب خمسة: كثرة الاختلاط، وركوب بحر التمني، والتعلق بغير الله، وكثرة الطعام، وكثرة النوم.

سؤال تأخرت في طرحه عامدًا عن تشخيص المرض لنذكر أعراضه وعلاجه تباعًا:

ما معنى قسوة القلب؟

ذهاب الرحمة واللين والخشوع من القلب.

كيف أعرف أني مبتلى بهذا الداء، وما هي الأعراض المشهودة؟

- لا يتأثر بالقرآن والمواعظ، ولا يعتبر بالموت.
- التكاسل عن الطاعات، وإن صلى فبغير خشوع.
- لا يكترث إن نزلت بالناس شدة ويفرح بمصائبهم.
- غلظة في التعامل مع الناس، ويعتدي على حقوقهم.

- سوء الظن بمن حوله وكثرة الخصومات والمشاجرات.
- يحتقر أعمال البر والإحسان وقضاء حوائج الناس.

وقال حذيفة المرعشي:

"ما ابْتُلِيَ أحد بمصيبة أعظم عليه من قسوة قلبه".

قال مالك بن دينار:

"ما ضُرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة القلب، وما غضب الله -عز وجل- على قوم إلا نزع منهم الرحمة".

قال -تعالى-: "وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون".

أعلم أن الآية نزلت في المشركين لكني على يقين بأن هذا حال البعض من القاسية قلوبهم. نسأل الله العافية.

قال سفيان الثوري: يأتي على الناس زمان تموت القلوب وتحيا الأبدان.

فتعالَ نُعد الحياة إلى قلوبنا، ونأتي بالعلاج من الصيدلية المحمدية، على صاحبها أفضل الصلوات وأتم التسليم.

1- "ألا كنت نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها، فإنها تُرق القلب، وتدمع العين، وتذكر بالآخرة".

كان هناك حكم شرعي بالنهي عن زيارة القبور لقرب عهدهم بالجاهلية، حيث كانوا يعظمون القبور، فتم نسخ الحكم، وأبيحت زيارة القبور، حيث إنها تُرق القلب وتُذهب ما فيه من القسوة والغلظة وتستدر من العين دمعها.

يقول سعيد بن جبير: لو فارق ذكر الموت قلبي ساعة واحدة، لخشيت على قلبي أن يفسد.

صنع الربيع بن خثيم حفرة في بيته وغطاها بخشبة، فإذا وجد في قلبه قسوة رفع الخشبة، ونزل القبر، وتذكر الوحشة وسؤال الملكين، ثم يقول: "رب ارجعون لعلي أعمل صالحًا فيما تركت" ويرفع الخشبة، ويخرج ويقول: يا نفسي، ها أنت قد عدت، فاعملي صالحًا.

2- ذكر المنذري في صحيح الترغيب والترهيب رواية عن أبي الدرداء أن رجلًا أتى النبي -صلى الله عليه وسلم- وقال: إني أجد قسوة في قلبي.

فقال -صلى الله عليه وسلم-: أتحب أن يلين قلبك وتدرك حاجتك؟ ارحم اليتيم، وامسح رأسه، وأطعمه من طعامك يلين قلبك وتُدرك حاجتك".

اليتيم: من مات أبوه وهو صغير دون البلوغ حتى يبلغ "لا يُتم بعد احتلام".

فهذا اليتيم الذي يتعرض له البعض بأذى لو حنوت عليه ومسحت على رأسه، فلك بكل شعرة مرت عليها يدك حسنة، ولزال عنك ما تجد من القسوة، وقد قال قتادة -رحمه الله-:

كن لليتيم كالأب الرحيم.

3- "مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه كمثل الحي والميت"

يقول ابن القيم: إن في القلب قسوة لا يذيبها إلا ذكر الله -تعالى- فالذكر إعادة إعمار للقلب، وقد جاء رجل إلى الحسن البصري يشكو قسوة قلبه، فقال الحسن: أذبه بالذكر.

وأجلُّ الذكر كلام ربي "فذكر بالقرآن من يخاف وعيد"

سأل رجل الإمام أحمد -رحمه الله-:

كيف يرق قلبي؟

قال: ادخل المقبرة وامسح رأس اليتيم.

الشاهد في الأمر أن المرض قديم، ورغبة الناس في العلاج دفعتهم للسؤال وطلب الشفاء.

تنويه: يجوز للمرأة أن تذهب لزيارة القبور ملتزمة بزيها الشرعي، ولا تأتي بمنكر كصراخ وعويل، ولا تُكثر من مرات الزيارة.

ذكر أبو داوود في كتاب الزهد عن عون بن عبد الله قال:

أتى رجل إلى أم الدرداء يشكو: إني أجد قسوة في قلبي.

فقالت: أعظم الداء داؤك.

عُد المرضى، واتبع الجنائز، واطلع في القبور، لعل الله أن يُلين قلبك.

قال: ففعل الرجل، فكأنه أحس من نفسه رقة، فجاء إلى أم الدرداء يشكر لها.

مهما قسا قلبك وتجبر وتمدد فيه الظلام، ولم يتأثر، فلا تيأس من العلاج، فما جعل الله من داء إلا جعل له دواء، فلو سودت قلبك الذنوب، وتناولته العلل والعيوب، فتوجه إلى الله مقلب القلوب، واسأله الضياء لقلبك لتُشرق عتمته "من إله غير الله يأتيكم بضياء".

وقفوا على شفير الذنب

روى ابن عباس -رضي الله عنه- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: "إن الله كتب الحسنات والسيئات، ثم بين ذلك، فمن همَّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، وإن همَّ بها فعملها كتبها الله -عز وجل- عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، وإن همّ بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، وإن همّ بها فعملها كتبها الله عنده سيئة واحدة".

من أسمائه -عز وجل- الشكور الذي يُجازي على القليل من العمل كثيرًا من الثواب، فالحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف والسيئة بواحدة، فالويل لمن غلبت وحدانه عشراته!

لكن ما استرعى انتباهي في الحديث أن من همّ بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة كاملة، لم يتقرب إلى الله بطاعة، ولكنه كف عن معصية هم بها فتراجع ومضي، فتكتب لها حسنة، لعل بها ترجح كفة ميزانه يوم القيامة.

رجل راود امرأة عن نفسها فطاوعته، فلما جلس منها كما يجلس الرجل من زوجته عاد إليه رشده وصوابه، وقال: إن رجلًا يبيع جنة عرضها السموات والأرض بشبر من اللحم لقليل العلم بالمساحة، ثم قام وتركها.

يقينه بما عند الله من النعيم غلب رغبته في شهوة عاجله فقام وتركها، ليس لخوفه من فضيحة تلحق به أو عار يبدد وجاهته، بل حسبة لله.

تفنى اللذاذة ممن نال صفوتها من الحرام ويبقى الإثم والعار
تبقى عواقب سوء في مغبّتها لا خير في لذة من بعدها النار

كانت امرأة جميلة بمكة وكان لها زوج، فنظرت يومًا إلى وجهها في المرآة، وقالت لزوجها: أترى أحدًا يرى هذا الوجه ولا يُفتن به؟ قال: نعم، عبيد بن عمير.

قالت: فائذن لي فيه لأفتنه، قال: قد أذنت لك، فذهبت إليه كأنها تستفتيه في أمر، فخلا معها في ناحية المسجد، وأسفرت عن وجه مثل فلقة القمر فقال لها: يا أمة الله استتري، فقالت: إني قد فتنت بك، قال إني سائلك عن شيء، فإن أنت صدقتيني نظرت في أمرك.

قالت: لا تسألني عن شيء إلا صدقتك قال: أخبريني لو أن ملك الموت أتاك ليقبض روحك أكان يسرك أن أقضي لك هذه الحاجة؟ قالت: اللهم لا، قال: صدقت قال: لو دخلت قبرك وأجلسوك للسؤال أكان يسرك أن أقضي لك هذه الحاجة؟ قالت: اللهم لا، قال: صدقت، قال لو جيء بالميزان وجيء بك فلا تدرين أيخف ميزانك أم يثقل أكان يسرك أني قضيتها لك؟

قالت: اللهم لا، قال: صدقت، قال: فلو وقفت بين يدي الله للمساءلة أكان يسرك أني قضيتها لك؟ قالت: اللهم لا.

قال: اتقي الله، فقد أنعم الله عليك وأحسن إليك، فرجعت إلى زوجها وقالت: أنت بطّال ونحن بطّالون، وأقبلت على الصلاة والصوم والعبادة، فكان زوجها يقول: ما لي وعبيد بن عمير أفسد علي امرأتي، كانت في كل ليلة عروسًا فصيرها راهبة.

عادت من همها بالمعصية إلى العبادة والطاعة، رحم الله عبيد بن عمير، ردها عن غوايتها إلى صومعتها راشدة.

استوقفني ما قاله أحد الثلاثة الذي آواهم المبيت إلى الغار، فانطبقت على بابه صخرة، فقالوا: نتقرب إلى الله بعمل صالح ليكشف كربنا، فقال أحدهم: اللهم إنه كان لي ابنة عم، كانت أحب الناس إليّ فراودتها عن نفسها فامتنعت مني، حتى ألمّت بها سنة وحاجة فجاءتني تطلب المال فأعطيتها مائة وعشرين دينارًا على أن تخلي بيني وبين نفسها، ففعلت حتى إذا جلست إليها قالت: اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه، فاستحييت من الوقوع عليها، وانصرفت عنها، وهي أحب الناس إليّ، وتركت الذهب الذي أعطيتها.

أجهد نفسه حتى جمع المال، فقد كان حبه لها أشد ما يحب الرجال النساء، وعندما خوفته بالله قام عنها وتورع عن الحرام وترك المال.

عزم على الزنا، وكل الظروف مواتية، ولكنه تراجع ابتغاء مرضاة الله، نجاه الله من الغار، وانفرجت عنهم الصخرة، ولعل الله يكتب له النجاة يوم ترى الولدان شيبًا، بتلك الحسنة التي أتت من سيئة تركها.

كان الفضيل بن عياض التقي الورع في بداية حياته لصًا، وفي إحدي الليالي كان يتسلق جدار بيت ليسطو عليه، وقيل أنه قد واعد جارية فسمع مصليًا في البيت يتلو: "ألم يأن للذين ءامنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق".

فكأن الآية اخترقت ظلام نفسه، فقال: الآن يا رب، وذهب يصلى الفجر فقرأ الإمام بنفس الآية، فعلم أنها رسالة من الله له فأقر بتوبته، وقال: يا رب قد جعلت توبتي مجاورة بيتك الحرام، مضى إلى أرض الحجاز، ولزم العبادة في الحرم حتى لُقب بعابد الحرمين.

أنارت الآية بصيرته، وأحيت فؤاده، وردت عليه زمام نفسه التي شردت منه في طرق التيه والضياع:

رباه قلب حُبّك ساكنه غير محتاج إلى السُرُج

وقفة مع الداء

قال الربيع بن خثيم لأصحابه:

أتدرون ما الداء والدواء والشفاء؟

قالوا: أخبرنا.

فقال: الداء الذنوب، والدواء الاستغفار،

والشفاء أن تتوب ثم لا تعود.

أوحى الله إلى موسى أن أول من مات من خلقي إبليس ذلك لأنه عصاني، وإنما أعد من عصاني من الأموات.

قال ابن عباس: إن للسيئة سوادًا في الوجه، وظلمة في القلب ووهنًا في البدن وضيقًا في الرزق، وبغضًا في قلوب الخلق.

قال سفيان الثوري:

حُرمت قيام اليل ستة أشهر بذنب أذنبته.

قيل: ما هو؟

قال: رأيت رجلًا يبكي فقلت: إنه مراء.

ما الذي سلط الريح على قوم عاد حتى ألقتهم موتى على وجه الأرض؟

ما الذي أرسل على قوم ثمود الصيحة حتى قطعت قلوبهم في أجوافهم؟

ما الذي رفع قرى اللوطية حتى سمعت الملائكة نبيح كلابهم فجعل عاليها سافلها؟

لا شك أنه الذنب.

خرج عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- يودع جيش سعد بن أبى وقاص الذاهب إلى القادسية ليُحارب ضد الجبهة الفارسية. فقال عمر: يا سعد أوصيك ومن معك بتقوى الله -عز وجل-، فإننا إن عصينا الله تساوينا مع العدو في المعصية، وزاد علينا في العُدة والعتاد، يا سعد أنا لا أخشى على الجيش من عدوه إنما أخشى على الجيش من ذنوبه.

يستصغر المرء ذنبه قياسًا لذنوب غيره، ويقول أنا أنظر للنساء ولكن غيري يزني بهن، أنا أشرب السجائر بينما غيري يشرب المخدرات.

يقول بلال بن سعد: لا تنظر إلى صغر المعصية، ولكن انظر إلى عظمة من عصيت.

جاء شاب إلى الحسن البصري، وقال:

يا إمام، الله -عز وجل- يقول: "وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير".

وأنا ولدت أعمى لم أرتكب جناية.

فقال الحسن: إذن، بذنوب والديك.

طفل خرج للدنيا حالًا يُعاني من ثقب في القلب، وآخر يعتريه السكر قبل أن تُلقي باللوم على هرمونات توغلت في أطعمتنا أو تتهم الطبيب بأنه أكثر على الحامل بأدوية شتى أو تجلس تتفحص شجرة العائلة لتتبع المرض وراثيًا، هلّا تطلعت في مرآتك فربما احتفظت بالتهمة لنفسك.

يقول أبو الدرداء: إني لأعصي الله فأجد ذلك في خلق دابتي وجاريتي.

إن عطبت سيارتك على الطريق قبل أن تتهم ذاك العامل في ورشته تمهل قليلًا.

إن خالفتك زوجتك فيما تُحبه وترضاه قبل أن تتهمها بسوء الخلق تمهل قليلًا.

فربما كان ما تجد بشؤم المعصية.

وعن أنس -رضي الله عنه- أنه قال:

"إنكم تعملون أعمالًا هي أدق في أعينكم من الشعر، وإن كنا لنعدها على زمن رسول الله من الموبقات".

قال الفضيل بن عياض: بقدر ما يصغر الذنب في عينيك يكبر عند الله، وبقدر ما يكبر الذنب في عينيك يصغر عند الله.

كلمة قالها الحسن البصري وجدت فيها البرهان الذي يضرب خواطري السيئة لترجع، كانت مقولة الحسن تنصحني في صمت، وكنت أمتثل لزجرها، وكأنه يهمس بها في أذني كاشفًا حال العصاة:

"هانوا على الله فعصوه ولو عزوا عليه لعصمهم".

لو كان العاصي له قدر عند الله لعصمه من هذه الزلة، ولعاد به من طريق الغواية بعد مكالمة هاتفية تُخبره بمرض ابنه أو خلاف يحتد بين أهله أو غير ذلك من الأسباب، ولكنه هان على الله فتركه لجموح نفسه.

"ومن يُهن الله فماله من مكرم".

شاب واعد فتاة جميلة لتأتيه في بيته، فظل يترقب وصولها، ولما دقت الباب أسرع ليفتح فوجدها قد تألقت في زينتها وسحرها، فأراد أن يعبر عن تعظيمه لها، فخر لها ساجدًا، أقسم لك ولست حانثًا في قسمي ما رفع رأسه عن الأرض مرة أخرى.

قال أحد الدعاة إلى الله: إذا حدثتك نفسك بالمعصية فذكرها بعقاب الله، فإن لم ترجع فذكرها بأخلاق الرجال من السلف، فإن لم ترجع فذكرها بالفضيحة إذا علم الناس، فإن لم ترجع فاعلم أنك من الساعة انقلبت إلى حيوان لا يشغلك إلا شهوتك.

المعصية تحجب لذة العبادة:

جاء رجل إلى الحسن البصري وقال: إني أعصي الله وأذنب وأرى الله يعطيني ويفتح عليّ من الدنيا، ولا أجد أني محروم من شيء.

فقال له الحسن: هل تقوم الليل؟

فقال: لا.

فقال الحسن : كفاك أن حرمك لذة مناجاته.

"فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أُتُوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون".

استدرجهم الله بالنعم حتى أخذهم بغتة فإذا هم نادمون، فلا يغتر صاحب النعيم ويتوهم أن الله راض عنه، ولا يغتر عاقل بإمهال بعد إنعام.

"إنما نملي لهم ليزدادوا إثمًا ولهم في الآخرة عذاب أليم".

بعد نكبة البرامكة قال جعفر لأبيه يحيى البرمكي:

يا أبتاه بعد العز والسلطان صِرنا في القيد والحبس.

قال: يا بني دعوة مظلوم سرت في جوف الليل، غفلنا عنها وما الله عنها بغافل.

شؤم المعصية على المجتمع:

حدث قحط في زمن أحد أنبياء بني إسرائيل، فخرجوا إلى الصعدات يجأرون فأوحى الله إلى نبيهم "خرجتم إلى الصعدات حين اشتد غضبي عليكم ورفعتم إليّ أكفًا سفكتم بها الدماء وملأتم بها بيوتكم من الحرام، فلن تزدادوا مني إلا بُعدًا".

اهتزت المدينة في عهد عمر بن الخطاب فقال: إن هذا بأمر أحدثتموه، وإن عادت لا أساكنكم فيها أبدًا.

قال -تعالى-: "ظهر الفساد في البر والبحر، بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون".

فالذي يتجرأ على الله بمعصيته يجر الوبال على نفسه وعلى المجتمع من حوله، وقد منع الله موسى وقومه المطر بسبب معصية واحد منهم "فلما آسفونا انتقمنا منهم". وتأمل معي دموع أبي بكر -رضي الله عنه- حين جاءوا له بطير قد اصطادوه فقلبه بين يديه وبكى، وقال ما قُطعت من شجرة وما صيد من طير إلا بتركي التسبيح. عاتب نفسه على طاعة تركها، فما بالنا نقترف المعاصي ولا نتحسر، فما لجرح بميت إيلام.

يقول الإمام التابعي يحيى بن أبي كثير:

"ثلاث لا تكون في بيت إلا نُزعت منه البركة: السرف والزنا والخيانة".

مات بسبب الإيدز عام 2005 ثلاثة ملايين إنسان، ويُصاب بهذا المرض الفتاك أحد عشر شخصًا في الدقيقة الواحدة، أي 16000 مصاب تقريبًا في اليوم.

ذكر بن أبي الدنيا أن أنس بن مالك استأذن على عائشة ومعه رجل آخر، فقال الرجل: يا أم المؤمنين حدثينا عن الزلزلة.

فقالت: "إذا استباحوا الزنا وشربوا الخمور وضربوا المعازف غار الله -عز وجل- في سمائه، فقال للأرض: تزلزلي بهم، فإن تابوا ونزعوا وإلا أهدمها عليهم، قال الرجل: يا أم المؤمنين أعذابًا لهم؟ قالت: بل موعظة ورحمة للمؤمنين ونكالًا وعذابًا وسخطًا للكافرين".

فليُحدثنا العلم بملء فيه بأن الزلازل تحدث بسبب ضعف القشرة الأرضية وانهيار السدود.

ولكني أخاطب العصاة بقول ربي:

"قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابًا من فوقكم أو من تحت أرجلكم".

بما كسبت أيدي الناس جاءت الرياح المدمرة والفيضانات المهلكة والحروب الطاحنة والزلازل المروعة والعواصف الرعدية، وهي آيات كونية يستعتب الله بها أهل الأرض "لعلهم يرجعون".

ولكن يبقى سؤال:

أنهلك وفينا الصالحون؟!

تطرح السؤال زينب -رضي الله عنها-.

فقال -صلى الله عليه وسلم-:

"نعم إذا كثر الخبث"

أي: إذا كثرت المعاصي عمّ الهلاك.

وقفة مع الدواء

الوقفة التالية مع الدواء

فبعد أن ذكرنا الداء، وهو الذنوب، فالجميع يحتاج إلى الدواء وهو الاستغفار.

قيل لأحد السلف: كيف حالك أنت ودينك؟

فقال: تمزقه المعاصي وأرقعه بالاستغفار.

قال -تعالى-: "ومن يعمل سوءًا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورًا رحيمًا".

قال عليّ بن أبي طالب: عجبت لمن يهلك ومعه النجاة.

قيل: وما هي؟ قال: الاستغفار.

معنى الاستغفار: طلب المغفرة باللسان.

قال -صلى الله عليه وسلم-:

قال إبليس: يا رب وعزتك لا أبرح أغوي عبادك ما دامت أرواحهم في أجسادهم. فقال له ربه: فبعزتي وجلالي لا أبرح أغفر لهم ما استغفروني".

ما الفرق بين الاستغفار والتوبة؟

الاستغفار في حقيقته نوع من الدعاء، فهو سؤال الله المغفرة.

أما التوبة، فهي ندم على ذنب كان في الماضي، وإقلاع عنه في الوقت الحاضر، وعزم على عدم الرجوع للذنب في المستقبل.

جاء رجل إلى مجلس الحسن البصري، وقال: إن السماء لم تمطر.

فقال الحسن: استغفر الله.

ثم جاءه آخر يشكو الفقر.

فقال الحسن: استغفر الله.

ثم جاءه ثالث، وقال: أنا أشتهي الولد وامرأتي عاقر.

فقال الحسن: استغفر الله.

فقال الحاضرون للحسن: عجبنا لك كلما جاءك رجل قلت له: استغفر الله.

فقال لهم أما قرأتم قوله -تعالى-:

"فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارًا، يرسل السماء عليكم مدرارًا، ويُمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارًا".

أفضل أوقات الاستغفار: وقت السحر.

قال -تعالى-: "وبالأسحار هم يستغفرون".

حيث يتنزل الله -عز وجل- إلى السماء الدنيا نزولًا يليق بجلاله وكماله وينادي: "هل من مستغفر فأغفر له، هل من تائب فأتوب عليه..." الله -جلّ في علاه- يتودد إلى خلقه ورعاياه، حتى قال طاووس: لا أظن أن أحدًا ينام وقت السحر من شرف هذا الوقت، ونحن نغط في النوم إلا من رحم ربي.

وقت السحر قُبيل الفجر بثلاث ساعات تقريبًا، ولك أن تستغفر في كل وقت، فقد قال لقمان لابنه وهو يعظه: "يا بني عوّد لسانك رب اغفر لي وتب علي، فإن لله ساعات لا يرد فيها سائلًا".

ومن نفس المشكاة أتت موعظة الحسن: "أكثروا من الاستغفار في بيوتكم وعلى موائدكم وفي طرقكم وفي أسواقكم وفي مجالسكم، وأينما كنتم، فإنكم ما تدرون متى تنزل المغفرة".

وقد قيل أن يعقوب -عليه السلام- لما قال لبنيه: "سوف أستغفر لكم ربي" إنه أخّر استغفاره إلى وقت السحر.

ما هي صيغة الاستغفار؟

قال الإمام الأوزاعي أن تقول: أستغفر الله، أستغفر الله.

قال ابن عمر: كنا نعد لرسول الله في المجلس الواحد: "رب اغفر لي وتب علي، إنك أنت التواب الرحيم" مائة مرة.

فكم نهدر من أعمارنا على وسائل التواصل وعبر مكالمات الهاتف وفي متابعة الدوريات الأوربية، وعمر المرء منا رأس ماله، فانظر النبي المعصوم يستغفر مائة مرة، فأخبرني بربك كم يستغفر العصاة منا؟ وكأن القوم باتوا غافلين، فتحسر ابن القيم على حال الواحد منهم قائلًا: وآسفًا على عبد كلما كثرت أوزاره قل استغفاره، وكلما اقترب من القبور قوي عنده الفتور.

الله رحيم بعباده.

"يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك،

يا ابن آدم لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا، لأتيتك بقرابها مغفرة ".

سأل رجل حذيفة بن اليمان:

هل أنا من المنافقين؟

فسأله حذيفة: أتصلي إذا خلوت؟

قال: نعم.

أتستغفر إذا أذنبت؟

قال: نعم.

فقال حذيفة: اذهب، لا جعلك الله منافقًا.

قال -صلى الله عليه وسلم-:

"والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله -عز وجل- بكم وأتى بقوم يذنبون ويستغفرون فيغفر الله لهم".

ربما يتوهم بعض العصاة أن هذا الحديث يفتح لهم باب الفجور على مصراعيه، ويزيد من جرأتهم على الخطايا بل جاء الحديث ليعبر عن عفو الله عن المذنبين، فلو كان البشر معصومين كالملائكة لتعطلت صفة الغفران والعفو، فألهم الله نفوسنا الفجور والتقوى، وفتح لنا باب التوبة، وقال: "وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحًا ثم اهتدى".

هل الاستغفار لا يكون إلا بعد الذنب؟

أحيانًا نستغفر بعد طاعة، فبعد الصلاة نستغفر ثلاثًا، وفي الحج "ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله إن الله غفور رحيم".

فنستغفر ليس بعد الذنب فحسب، بل ربما وقع في العبادة خلل فنتدارك الأمر بالاستغفار، وقد كانت حياته -صلى الله عليه وسلم- زاخرة بالاستغفار، وقد بشرنا بعظيم الأجر لمن لزم الاستغفار.

"من أحب أن تسره صحيفته فليُكثر فيها من الاستغفار".

"طوبى لمن وجد في صحيفته استغفارا كثيرًا".

"من قال: أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه. غفرت ذنوبه وإن كان فرّ من الزحف".

فقد كان النبي يختم طاعته بالاستغفار، بل ختم حياته وكانت كلها طاعة بطلب المغفرة، فكان يُكثر أن يقول قبل موته: "سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه" وقد سمعته عائشة يدعو قبل وفاته: "اللهم اغفر لي وارحمني وألحقني بالرفيق الأعلى".

الاستغفار أفضل أم التسبيح؟

سُئل سفيان الثوري في ذلك فقال: الثوب الوسخ في حاجة إلى الماء والصابون أكثر من البخور. ربما تبدو إجابة غامضة ولكنها أصابت كبد

الحقيقة. تخيل أن أقذار المعاصي شيء مادي تطلخت به هل يُجدي معك البخور أو سكب العطر؟ أنت في حاجة ماسة للمطهرات وأدوات التعقيم مع الماء، وكذلك تحتاج للاستغفار لإزالة وسخ الذنوب، وحين تنجلي عنك اسكب عليها من عطور التسبيح ما شئت.

رواية عن أبي هريرة أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال:

"من جلس في مجلس فكثر فيه لغطه فقال قبل أن يقوم من مجلسه ذلك: سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك، إلا غُفر له ما كان في مجلسه ذلك".

ولا أبالغ جُلّ مجالسنا على هذا النحو، كنا صغارًا نختم درس العلم في المسجد بهذا الدعاء، فصرنا الآن في حاجة لنختم به كل لقاء واتصال وزيارة.

قال الفضيل -رحمه الله-: لم أجد غذاء ولا دواء خير من الاستغفار.

قال بعض السلف: العبد بين ذنب ونعمة، لا يصلحه إلا الاستغفار

قال -تعالى-: "وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يُمتعكم متاعًا حسنًا إلى أجل مسمى".

فمن لزم الاستغفار وعده الله بالمتاع الحسن، أي السعة في الرزق.

هل كل ذنب يُكفره الاستغفار؟

لو نمت عن صلاة العصر هل يكفيني الاستغفار عندما أستيقظ؟

"من نام عن صلاة فليُصلّها متى ذكرها".

لو أخذت مالًا من شخص بغير وجه حق هل يكفيني الاستغفار؟

" من كان لأخيه عند مظلمة فليتحلل منها" عليك برد المال.

ليس لي أن أسالك، ولكن إن تكرمت أذنت لي بالسؤال:

ما مصدر الأمان في حياتك؟

هل لك منصب مرموق أو علاقات قوية بأصحاب النفوذ أو لديك من المال ما يجعل لك في البحر طريقًا ممهدًا؟

لا أنتظر منك إجابة، ولكن سأطرح عليك سؤالًا آخر:

أتظن أن هذا هو الأمان؟

لا أقول لك أنت واهم، فلستُ في حاجة إلى تلك الغلظة، ولكن سأذكر لك ما قاله حذيفة بن اليمان: كان لنا أمانان، أما أحدهما فقد ذهب، وأما الآخر فقد بقي.

"وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم..".

وقد ذهب هذا الأمان بوفاة النبي -صلى الله عليه وسلم-.

وبقي لنا الأمان الآخر:

"وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون".

هذا هو الأمان أن يدفع الله عنك العذاب.

يقول عمر -رضي الله عنه-:

لو نزلت صاعقة من السماء ما أصابت مستغفرًا.

هذا هو الأمان أن يشملك الله برحمته، قال -تعالى-: "لولا تستغفرون الله لعلكم تُرحمون".

هذا هو الأمان وعد من الله بالمغفرة والثواب.

"والذاكرين الله كثيرًا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرًا عظيمًا".

يقول ابن القيم -رحمه الله-:

من أدام الحمد تتابعت عليه الخيرات، ومن أدام الاستغفار فُتحت له المغاليق.

رغم ضعف السند، فالمعني قوي بشواهده:

"من لزم الاستغفار جعل الله له من كل ضيق مخرجًا ومن كل همّ فرجًا ورزقه من حيث لا يحتسب".

أنا من أنا أنا في الوجود وديعـة وغدًا سأمضي عابرًا في رحلتي

أنا ما مددت يدي لغيرك سائلًا فاغفر بفضلك يا مهيمن زلتي

هل يجوز أن أطلب من رجل صالح أن يستغفر لي؟

نعم، طلب عمر من أويس القرني أن يستغفر له، ولعلك تذكر ما قاله أخوة يوسف: "يا أبانا استغفر لنا".

وقد قال الله لنبيه: "واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات".

روي الطبراني عن أبي هريرة أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال:

"من لم يكن عنده مال يتصدق به فليستغفر للمؤمنين والمؤمنات".

وكان من دعاء نوح -عليه السلام-:

"رب اغفر لي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمنًا وللمؤمنين والمؤمنات".

وبقي فضل أسوقه منك لغيرك...

روي أحمد في مسنده:

"إن الله -عز وجل- ليرفع الدرجة للعبد الصالح في الجنة، فيقول: يا رب أنى لي هذه؟ فيقول باستغفار ولدك لك".

فلا تبخل على والدك ولك بمثلها من ولدك فالجزاء من جنس العمل ولك من هذا البر نصيب، فإن انقطع عمله فبيدك ألا ينقطع أجره.

قال -صلى الله عليه وسلم-:

"إنه لَيُغَانُ على قلبي وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة".

لا ننكر على النبي الجانب البشري في حياته، فربما غشي على قلبه شيء، وقد أمسك العلماء عن الخوض في هذه المقالة من باب الأدب مع النبي حتى قال الأصمعي: "لو كان غير قلب النبي لتكلمت عليه".

دعني أحدثك بما أراه من الناس أحدهم لو أراد أن يستعيد صفو نفسه تجده يطلب مشروبه المفضل أو يستمع إلى الغناء أو يُشعل سيجاره، وعبثًا لا يُجدي ما صنع، ولو استغفر ربه لذهب عنه ما يجد.

وفي الختام:

اللهم إني أستغفرك مما زعمت أني أريد به وجهك، فخالط قلبي منه ما قد علمت. اللهم إني أستغفرك من كل ذنب ألممت به منذ أن جرى علي القلم حتى الآن. اللهم اغفر لنا الذنوب التي تُنزل البلاء، اللهم اغفر لنا الذنوب التي تحجب الدعاء، اللهم اغفر لنا الذنوب التي تقطع الرجاء. "ومن يغفر الذنوب إلا الله".

وقفة مع الشفاء

الوقفة الثالثة مع الشفاء

أن تتوب ثم لا تعود..

أن تثبت على توبتك، وقد قال أحد السلف عن التوبة النصوح:

يستغفر اللسان، ويندم القلب، ويمسك البدن.

وقد قال عنها عمر بن الخطاب:

أن يتوب من الذنب، ثم لا يعود إليه، كما لا يعود اللبن إلى الضرع.

الكفل من بني إسرائيل لم يتورع عن ذنب وجاهر بمعاصيه على مرأى ومسمع من قومه، فلم يرجو أحد له توبة لشدة فجوره، ولكن حدث شيء غير مجرى حياته، وأخذه من الضد إلى النقيض. فتعالَ أخبرك بما أورده الإمام أحمد في مسنده رواية عن ابن عمر أن النبي - صلى الله عليه وسلم- قال:

"كان الكفل من بني إسرائيل لا يتورع عن ذنب عمله، فأتته امرأة فأعطاها ستين دينارًا على أن يطأها، فلما قعد منها مقعد الرجل من امرأته أرعدت وبكت، فقال: ما يبكيك أكرهتك؟ قالت: لا، ولكنه عمل ما عملته قط، وما حملني عليه إلا الحاجة، فقال: اذهبي فهي لك، وقال: والله لا أعصي الله بعدها أبدًا. فمات من ليلته، فأصبح مكتوبًا على بابه: إن الله قد غفر للكفل".

لم يمهله الأجل ليصلح ما فاته ويتدارك أمره، ولكن صدق توبته أخرجته من ذنوبه، فالتوبة تجبّ ما قبلها، وباب التوبة مفتوح حتى تطلع الشمس من مغربها.

"إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل".

ربما لا يبسط الله لك الرزق بهذه الكيفية، أما باب التوبة فمفتوح وشروط الولوج منه في متناول يدك.

في بني إسرائيل كانت التوبة على هذا النحو

"توبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم"

أما التوبة في الإسلام ندم على الذنب.

يقول ابن عمر: من ألمّ بخطيئة فاهتز لها قلبه مُحيت عنه من أم الكتاب.

٢. إقلاع عن الذنب:

"دع أرضك فإنها أرض سوء" اهجر موطن المعصية، كما قيل لقاتل المائة نفس.

شاب كان يشرب المخدرات، ثم تركها، ولكنه ما زال يحتفظ لنفسه بأصدقاء السوء، فلن يصمد إلا قليلًا وسيعود يلتحف معهم بأنفاس حارة "لا تصاحب الفاجر، فإنه يزين لك الفجور ويود لو أنك مثله".

فتاة مستهترة لن تجرك إلا إلى المعاصي، فاستغني عن صحبتها أختاه، فالشاة المريضة هي التي تنقل العدوى إلى الشاة الصحيحة. ربما ودت الزانية أن النساء كلهن قد وقعن في الزنى حتى لا يلفظها المجتمع أو تشعر بأنها نغمة شاذة فتريد أن تدفع بكل من حولها إلى الهاوية فاحذري الاقتراب منها فاللغم لا يؤمن شره، ولكنه حتمًا سينفجر، ففي هجرها أمان.

عزم على عدم الرجوع:

فتماسك وتضرع إلى الله أن يحفظ عليك توبتك، ومهما كانت الضغوط أو الإغراءات فتماسك واثبت، ولا يغرك قول أحدهم ما من شجرة إلا وهزتها الرياح. فكن أقوى من رياح المجون والفجور، وسيبدل الله سيئاتك حسنات، ويغفر لك غدراتك وفجراتك، فما هي إلا ساعات وتسكن جنة النعيم، فمن اشتاق إلى الجنة سَلَا عن الشهوات "أفمن يُلقى في النار خير أم من يأتي آمنًا يوم القيامة اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير".

فنانة اعتزلت الفن أكثر من عشر سنوات وأتمت حفظ القرآن ونالت إجازات، ثم حلا لها أن تعود لهذا المستنقع مرة أخرى، بعدما ذاقت لذة القرب وحلاوة الطاعة جرفتها خيوط الصحبة إلى ضلالها القديم، والله يشهد بأني خشيت على نفسي حين سمعت بعودتها لماضيها بعد أن أتمت حفظ القرآن، ونالت إجازات، وسألت الله راجيًا الثبات.

سمعت عن فنانة أخرى لم تكن مديحة سمعتها، فكانت تصنف فنانة إغراء اعتزلت وتابت، وكانت لا تبرح بيتها وقطعت وشائجها مع الوسط الفني، وأقبلت على القرآن والصلاة، فكانت توبتها على نحو يرجوه كل عائد إلى ربه، لزمت العبادة خمس سنوات، وكان آخر عهدها بالدنيا أن صلت الفجر، وقرأت وردها من الأذكار، ثم نامت ولما أيقظوها لصلاة الظهر وجدوها قد ماتت.

صرت في حيرة من أمري، ما الذي ثبت هذه وجعل الأخرى تنتكس، حتى أرشدني أبو سليمان الداراني "لو وصلوا إلى الله ما رجعوا، إنما رجع من رجع من الطريق".

هذا هو الشفاء الحقيقي أن تتوب ثم لا تعود، فقد قال يحيى بن معاذ: زلة بعد التوبة أقبح من سبعين قبلها، ولكن الباب رغم أنف كل منفر سيظل مفتوحًا فإذا عدت إلى الذنب كرر التوبة، فإن الله لا يمل حتى تملوا، ضعي حجابك مرة أخرى على رأسك، وامسحي رقم هاتفه من على جوالك، وستجدي في روضة القرآن ما يغنيك عن الألحان، فلن تكوني في ماضيك أسوأ من هذه.....

أتدرين لما وضعت هذه النقاط وتوقفت عن الكتابة، ليس من باب التشويق للقصة، ولكني أردت أن أبدأ من زواية بعيدة..

كان لي صديق شاب انتقل إلى مدينة قريبة من مدينتا ليعيش مع جدته ويبحث عن فرصة عمل ضنت بها بلدتنا الفقيرة، وكان شابًا ملتحيًا زملاؤه في العمل أغروه بالمال ليحلق لحيته ولكنه أبى، الأمر يبدو عاديًا وليس جديرًا بالذكر، قصة تحدث مع الكثير، ما استرعى انتباهي لماذا أقدم أصحابه على هذا الأمر، وحتى تجد المبرر أود أن أصحبك في رحلة إلى الكوفة.

حيث انتقل إلى العيش بها الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود، عرف الناس له قدره والتف حوله البعض لينهلوا من علمه، وكان من

تلاميذه الربيع بن خثيم، شاب تقي ورع مجتهد في العبادة، صاحب عبرة وفكرة، كان ابن مسعود يقول له:

والله لو رآك رسول الله لأحبك وما رأيتك إلا ذكرت المخبتين. كان الربيع إذا مشى بين الناس غطى بكفه شطر وجهه، فقد كان وسيمًا وضاء المحيا، فخشي أن تُفتن به من قل وازع الإيمان في قلبها. تواصوا الفجار في بلده على إفساده وهكذا هم في كل بلد شياطين الإنس أعوانٌ لإبليس في غوايته، فجمعوا في أيديهم ألف دينار وذهبوا إلى غانية امرأة جميلة احترفت الزنا، وقد استغنت بجمالها عن أدوات التجميل، وقالوا لها: سنعطيك ألف دينار، قالت: على ماذا؟ قالوا: على قبلة واحدة من الربيع، قالت: ولكم أن يزني.

عذرًا يا ابن مسعود، فليس لك دور في القصة سامحني أيها الربيع، فما أردت إلا الغانية للحديث عنها فحسب.

وحقًا لك أختاه أن أستدرك لك حكايتي وأغزل لك بقية وصيتي، وقديمًا قالوا: لو ثبت لنبت، فاثبتي على التزامك وانظري ما كان من أمر الغانية، ذهبت بسحرها وفتنتها وتعرضت للربيع في ساعة خلوة، وأبدت مفاتنها، ونادته أنوثتها: هيت لك.

فصرخ قائلًا: يا أمة الله، كيف بك إذا نزل بك ملك الموت وقطع منك حبل الوتين؟ أم كيف بك يوم يسألك منكر ونكير؟ أم كيف بك يوم

تقفين بين يدي الرب العظيم؟ أم كيف بك إن لم تتوبي يوم تُرمين في الجحيم.

فصرخت وولت هاربة، ولزمت العبادة تصوم النهار وتقوم الليل حتى لُقبت بعابدة الكوفة، فقال من أرسلوها: أفسدها علينا الربيع.

أخبرتك من قبل بأن الفضيل بن عياض كان لصًا قاطع طريق، حتى أذن الله له بتوبة فتنسك واجتهد، وكان يذكر ذنوبه ويبكي حتى ألف البكاء، فكان -رحمه الله- يبكي وهو نائم. وكان من أخوف الناس وأشدهم خشية، فلما مات قال عبد الله بن المبارك: اليوم ذهب الخوف، واستوى الناس.

الصدقة

كانت عائشة -رضي الله عنها- تُلقب بأم الطيب، حيث كانت تضع الدرهم في الطيب قبل أن تتصدق به.

فسألوها في ذلك.

فقالت: إن الصدقة تقع في يد الله قبل أن تقع في يد الفقير.

وإذا قال لها السائل: جزاك الله خيرًا يا أم المؤمنين.

ترد عليه: بل جزاك الله أنت خيرًا.

فسألوها: لمَ تدعو للسائل؟

فتقول: لتكون دعوتي مقابل دعوته وتبقى الصدقة لله.

ليس لي أن أقتحم حياتك، ولكن أرجو أن تُسامحني على تجاوزي، من يُنفق عليك؟

ربما تعيش في كنف عائلة يحنو عليها أب رحيم، أو لك عائد من زرع أو ضرع أو تجارة، أدام الله عليك النعم وحفظ عليك ما حظيت به.

آمنت على دعوتي لك، أم أنك تتخطى أعناق الكلمات فحسب

هل تخشى أن تنقطع النفقة لسبب أو لآخر؟

تعالَ أدلك على نفقة لا تنقطع..

قال الله -عز وجل- في الحديث القدسي:

"يا ابن آدم أَنفق أُنفق عليك".

تصدق وأنفق، ولك عند الله عهد بنفقة مضاعفة لا تنقطع.

يقول علي بن أبي طالب: إذا أملقتم فتاجروا مع الله بالصدقة.

فإن افتقرتم فتصدقوا وتاجروا مع الله، فإن الصدقة تفتح لصاحبها باب الرزق والبركة.

"ما عندكم ينفد وما عند الله باق".

انتقل أبو ذر إلى مكان يسمى الربذة فأتاه ضيف لم يجد في بيته كثير متاع، فقال: أين متاعك يا أبا ذر؟

فقال أبو ذر: إن لنا دارًا أخرى نرسل إليها بخير متاعنا.

فوعاها الرجل، وقال: لا غنى لك عن المتاع.

فقال أبو ذر: صاحب الدار لن يدعنا.

تاجر مع الله بنذر يسير من راتبك أو عائد التجارة أو من ريع السيارة أو ربح الورشة.

سُئل عبد الله بن مسعود: من العاقل؟

فقال: الذي يكنز ماله في مكان لا يأكله السوس، ولا يصل إليه اللصوص.

قالوا: أين؟ قال: في السماء.

"ابن آدم يقول مالي مالي، وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، ولبست فأبليت، وتصدقت فأبقيت".

لو تملك من المال عشر ملايين ثم وافتك المنية صار المال للورثة سيتاقسمونه فور دفنك، ولن تحظى إلا بما قدمته لنفسك وادخرته عند ربك صدقات، فلا تغتر بالعشرة، فهي لورثتك.

جبل من تمر:

أورد البخاري في صحيحه:

"من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب، ولا يقبل الله إلا الطيب، وإن الله يتقبلها بيمينه، ثم يُربيها لصاحبها كما يُربي أحدكم فلوه، حتى تكون مثل الجبل".

فمن تصدق بقيمة تمرة من كسب حلال يُنميها الله له ويُضاعف أجرها لتثقل في الميزان، كما يتعاهد أحدنا مهره الصغير من الخيل حتى تكون التمرة مثل الجبل.

كان ابن عمر يتصدق بالسكر، فقيل له: إن الناس في حاجة إلى التمر والشعير، فهل تصدقت بشيء غير السكر؟

فقال: أعلم ذلك، ولكن الله -عز وجل- يقول: "لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون" وابن عمر يُحب السكر.

أتدري ما البر؟ البر أي الجنة، فانظر أي الأشياء أحب إليك وتصدق منها طعامًا كان أو نحوه، فتصدق مما تحب طمعًا في البر.

أطعم أحد الصالحين رجلًا أعمى فالوذج "نوع من الحلوى".

فقيل له: إن هذا الأعمى لا يدري ما يأكل.

فقال: ولكن الله يدري.

ثمرات مزهرة من الصدقة:

قال ابن القيم: إن للصدقة تأثيرًا عجيبًا في دفع أنواع البلاء، ولو كانت من فاجر أو ظالم أو كافر.

ذكر السمرقندي في كتابه تنبيه الغافلين:

أن امرأة كانت تمشي في الصحراء معها رغيف خبز وصبيها الصغير قسمت الرغيف بينها وبين ابنها، فمر عليها سائل قد انقطعت به السبل،

فأعطته نصيبها من الرغيف، انشغلت المرأة بمتاعها وقام الصبي يلعب، وقد غفلت المرأة عنه، فأتى ذئب من باطن الوادي وأخذ الصبي من مجامع ثوبه، وهم أن يأكله فصرخ الصبي فانتبهت له أمه، فارتعدت وصاحت، يا رب اللقمة فألقاه الذئب من فمه وسمعت مناديًا يناديها: لقمة بلقمة.

وقد روي: "إن الصدقة تُطفئ غضب الرب وتقي مصارع السوء وتطيل في العمر".

لقمة في فم الفقير ردها الله بلقمة من فم الذئب، ما أرحمك يا رب تُجازي بالإحسان إحسانًا وبالإساءة عفوًا وغفرانًا.

ملك يدعو لك:

"ما من يوم يُصبح فيه العباد إلا وفيه ملكان ينزلان فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقًا خلفًا، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكًا تلفًا".

ملك لم يعصِ الله طرفة عين يدعو لك بالخلف كلما أنفقت، ودعوة الملك مجابة، فيا حظ من كانت له. أحد أصدقائي كان يعمل في جريدة رياضية ومنذ راتبه الأول وهو يتصدق بثلثه والله يعلم كم كان في حاجة ماسة لما يتصدق به، ولكنه رضي بالتجارة مع الله، فسنحت له فرصة للعمل في جريدة كبرى في الخليج رغم كان من زملائه من هو أكفأ منه،

ولكنها كانت مكافأة من الله له، وكثيرًا ما أراه ضيفًا له طلة بهية في قناة رياضية شهيرة، فتحت له الصدقة قلوب الخلق محبة على إحسانه وسطع نجمه، وارتفع على أقرانه.

قال النووي: يُستحب لمن حصلت له نعمة ظاهرة أو اندفعت عنه كربة جلية أن يتصدق بشيء من ماله شكرًا لله على جميل صنعه.

ورد في السنة:

"حصنوا أموالكم بالزكاة، وداووا مرضاكم بالصدقة".

اذهب إلى الأطباء وتناول ما شئت من العقاقير، ولا تمنع نفسك من تجريب بعض الوصفات آمنة العواقب وتشبث بكل قشة حدثوك عن نفعها، ولكن عليك بهذ الدواء المجرب "داووا مرضاكم بالصدقة"، أنفقت مالك عند الأطباء والصيادلة ومراكز الأشعة والتحاليل، هلّا زدت على نفقتك خمس جنيهات تغرسها في يد فقير، كان في بلدتنا رجل صالح إذا مرض يذهب بالروشتة إلى الصيدلي ليسأله فقط عن ثمن الدواء ويتصدق به، وكان يبرأ، ولم يعرف للدواء طعمًا، ولكنه اليقين بأن الشفاء من رب العالمين "وإذا مرضت فهو يشفين".

جاء رجل إلى عبد الله بن المبارك وقال: قرحة خرجت في ركبتي منذ سبع سنين عالجتها بكل أنواع العلاج، ولم تبرأ، فقال ابن المبارك: اذهب إلى مكان يلتمس الناس فيه ماء واحفر لهم بئرًا، وإني لأرجو أن ينبع عندهم الماء وتجف عن قدمك الدماء، ففعل الرجل فبرأ.

تعامل بيقين مع الله رب العالمين، وسترى عجبًا سينشرح صدرك وتغمرك السعادة، وستُقضى حوائجك ويدخر لك الأجر.

"إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرًا وعلانية أولئك يرجون تجارة لن تبور".

فبادر وتصدق من أجل أن يكون قبرك روضة لا حفرة.

"إن الصدقة لتطفئ عن أهلها حر القبور".

يوم القيامة تدنو الشمس من الرؤوس، ويلجم الناس العرق إلجامًا، فتأتي الصدقة لتحجب حر الشمس عن صاحبها.

"كل امرئ في ظل صدقته يوم القيامة حتى يُقضى بين الناس".

تناديك الملائكة: هلم للعرض على الله، فتمشي معهم حتى تكون في حضرة الملك.

"ما منكم من أحد إلا وسيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان، فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر أَشْأَمَ منه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه، فاتقوا النار ولو بشق تمرة".

من رهبة العبد بين يدي ربه يلتفت يمينًا وشمالًا كأنه يطلب العون أو طريقًا يجد فيه النجاة، فلا يرى إلا النار وقد تحول بينه وبينها شق تمرة، لو طُلب منك وقتها شق راتبك لفعلت راضيًا ولو طُلب منك شق مالك لتنجو لقدمته غير آسف، وربما تأتي بملء الأرض ذهبا لتفتدي به

نفسك ولكن هيهات فلن يُقبل منك، لذا؛ تجد المرء عندما تأتيه السكرات يتخذ قرارًا عازمًا.

"وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين".

المحتضر اتخذ قرار بالمبادرة إلى العمل الصالح لو أخر الله في أجله، فلماذا خص الصدقة بالذكر، وقدمها على أعمال البر والخير؟

عند الموت يُصاب المرء بمصيبتين: أما الأولى فيترك ماله كله، والثانية يُسأل عنه كله. فلما تبصر الحقيقة بأنه سيخرج من الدنيا خالي الوفاض أراد أن يتصدق، وقد بخل بالمال من قبل

"ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم".

ولم يقل الله في الدنيا لأنك لا تُلقي خلف ظهرك إلا كل حقير. فستعلم حينئذ حقارة المال الذي حجب عنك نصيبك من المغفرة.

وليتك كنت من الناظرين إلى سفيان الثوري حين يأتيه السائل يطلب منه الصدقة، فيتهلل ويستبشر بقدومه، ويقول: "مرحبًا بمن جاء يغسل ذنوبي".

وهذا الفضيل يرى أن للسائل فضلًا على المتصدق، وربما مدحه في ذلك، تتعجب في نفسك وتريد أن ترد على الفضيل قوله، وتقول أنا

صاحب اليد العليا، على رأسي ما تقول، فربما نظر فضيل للأمر من أكثر من زواية، فاستمع إليه يقول:

"نعم السائلون، يحملون زادنا إلى الآخرة بغير أجرة حتى يضعوه في الميزان بين يدي الله -تعالى-".

"من ذا الذي يُقرض الله قرضًا حسنًا فيضاعفه له وله أجر كريم".

كما كنت كريمًا، وأنت تتصدق سيكون لك أجر كريم عند الله، جاءت قافلة تجارية قوامها ألف بعير لعثمان بن عفان، فجاء إليه تجار المدينة قالوا يا عثمان نعطيك الدرهم بدرهمين فأبى فزادو في مساومته حتى قالوا الدرهم بخمسة وانتظروا أن يستجيب لهم ويرضخ لشهوة الكسب، وربح تمت مضاعفته خمس مرات، فأبي مجددا وقال: بعتها بأكثر من ذلك، فقالوا: يا عثمان ليس في المدينة تجار غيرنا، فلمن بعتها وبكم؟ فقال: بعتها لله -عز وجل- الدرهم بعشرة "فمن جاء بالحسنة فله عشر أمثالها".

حتى لو كنت فقيرًا ولا تملك من حطام الدنيا شيئًا فلا تحرم نفسك الأجر، فلن تكن أشد فقرًا من بلال الحبشي وقد أرشده نبيه "يا بلال أنفق ولا تخشَ من ذي العرش إقلالًا" وقد قال علي -رضي الله عنه-: "لا تستحِ من إعطاء القليل، فإن الحرمان أقل منه".

جاء سائل إلى بيت عائشة فقالت للجارية: تصدقي عليه فبحثت الجارية عن شيء تتصدق به، فلم تجد غير حبة عنب، فقالت عائشة:

تصدقي بها، فاحتقرتها الجارية -أي استصغرتها- فقالت عائشة: كم فيها من ذرة "فمن يعمل مثقال ذرة خيرًا يره".

وقد قال -صلى الله عليه وسلم-:

"سبق درهم مائة ألف درهم قالوا: كيف ذلك؟ قال: كان لرجل درهمان فتصدق بأحدهما، وانطلق رجل إلى عرض ماله فأخذ منه مائة ألف درهم فتصدق بها".

قد يبخل البعض بالمال ويقول تعبي وكدي وسعي وتجارتي، وما بقي له إلا أن يقول: "إنما أوتيته على علم عندي" قالها قارون من قبل فكانت عاقبته "فخسفنا به وبداره الأرض" فالمال مال الله "وءاتوهم من مال الله الذي آتاكم" ونحن مستخلفين فيه "وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه" قيل لأحد الأعراب: لمن هذه الإبل؟ قال هي لله في يدي.

وقد توعد الله -عز وجل- من يبخلون بالمال ولا ينفقونه:

"يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون".

سيكوى البخيل بدرهمه في النار، وقد سُئل أبو بكر الوراق:

لمَ خصّ الله الجبهة والجنب والظهر بالكي؟

فقال: الغني إذا رأى السائل قبض جبينه، وزوى ما بين عينيه وولاه جنبه، ثم يدير له ظهره.

قال الله -عز وجل-: "الأغنياء وكلائي والفقراء عيالي، فإذا بخل وكلائي على عيالي أخذتهم ولا أبالي".

خدعوك فقالوا، بل إثمًا وزورًا وبهتانًا ما حدثوك به بأن ما يحتاجه البيت يحرم على المسجد، وكأن الحسن البصري يسمعها منهم فيرد عليهم مقالتهم قائلًا:

قرأت في تسعين موضعًا من القرآن أن الله قدّر الأرزاق وضمنها لخلقه، وقرأت في موضع واحد "الشيطان يعدكم الفقر" فشككنا في قول الصادق في تسعين موضع، وصدقنا قول الكاذب في موضع واحد.

قال -تعالى-: "ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون".

شحيح النفس يرى الزكاة مغرمًا والصدقة خسارة، ولا يعترف بحق الله في ماله، لذا؛ تجده يُحب الدنيا، ويخشى الموت ولو قدم ماله لسره أن يلحق به، فتجده يتحسر لو أخرج صدقة ولو أتاه فقير "أعرض ونئا بجانبه" وربما كانت حسرته يوم القيامة أشد، وأدع المجال للحسن البصري يُخبرنا بعلة الأمر...

إن هذا المال أتاك حلالًا، فلا يكونن عليك وبالًا، واعلم بأن يوم القيامة ذو حسرات، وأشد الناس حسرة رجل وجد ماله في ميزان حسنات غيره سعد به وارثه، وشقي به جامعه، فيالها من حسرة لا تزال وعثرة لا تُقال.

بخل جامع المال به فورثه عنه ابن صالح تاجر مع الله به.

وصدق من قال: "الصدقة برهان".

برهان على ماذا؟

على صدق إيمانك.

قال النووي: الصدقه حُجة على إيمان فاعلها.

"وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين".

يُخلفه عليكم بالبدل في الدنيا وفي الآخرة بالثواب والجزاء.

قال الحسن كلمة فضح بها أقوامًا: من أيقن بالخلف جاد بالعطية.

البر والعقوق

قال -صلى الله عليه وسلم-:

"رأيت ليلة أسري بي أقوامًا في النار معلقين في جذوع من نار فقلت: يا جبريل، من هؤلاء؟

قال: هؤلاء الذين يشتمون آباءهم وأمهاتهم في الدنيا".

وتأمل حال آخر:

عبد الله بن عون نادته أمه فأجابها، فعلا صوته صوتها. فأعتق رقبتين.

قال ابن حجر -رحمه الله-:

العقوق مشتق من العقّ، أي القطع.

والمراد به: صدور ما يتأذى به الوالد من ولده من فعل وقول.

قال -صلى الله عليه وسلم-:

"بابان معجلان عقوبتهما في الدنيا البغي والعقوق"

كان يُروى لنا ونحن صغار أن رجلًا كان يقف في حقله وابنه إلى جواره، فتنازع معه جيرانه على من يكون له أسبقية ري أرضه أولًا، ثم رضخ الرجل وترك الأمر لأحد جيرانه، فغضب الابن وصفع أباه أمام الجيران، ثم دارت أيام ومرت سنوات، وتكرر المشهد في نفس البقعة وصار الابن العاق رجلًا كبيرًا، وله ولد فإذ بالولد يتجرأ ويصفع أباه ويكيل له بالمكيال نفسه والجزاء من جنس العمل.

تأمل معي حال السلف لترى كيف كان برهم.

كان حيوة بن شريح يقعد في حلقته يعلم الناس، فكانت تطل أمه له، وتقول: قم يا حيوة وضع الشعير للدجاج فيقوم ويترك التعليم.

توفى عمر بن ذر الهمداني فقيل لأبيه: كيف كان معك؟

فقال: ما مشيت معه بليل قط إلا كان أمامي، ولا بنهار قط إلا كان خلفي، وما علا سطحًا قط وأنا تحته.

يمشي أمام والده بالليل ليواجه الخطر عنه، وبالنهار يكون خلفه توقيرًا له، أما الثالثة فتعجز لغتي عن شرحها، فلم يكن يعتلي سطح بيت ليرتفع عن أبيه.

طالب من ريف الدلتا في كلية العلوم أبهرته حياة المدينة، فكان يُرهق والده بطلباته ورغباته، فقال له والده: ابحث لك عن عمل وأنفق على نفسك ودعني أكمل رسالتي مع إخوتك الصغار، فاستشاط الابن غضبًا وأضمر الشر في نفسه، وأحضر مادة كيمائية ونثرها على جسد والده، وهو نائم فاحترق جسده حتى بدت عظامه.

أى زمن نحن فيه، لقد وصلنا لقعر العقوق، وآخر الفجور وتمادينا في البغي والطغيان، وقد قال النبي لأصحابه: "من الكبائر شتم الرجل والديه" قيل: وهل يسب الرجل والديه؟! لم يرتقي وعي الصحابة بأن سوء الأدب سيصل لهذا الحد، لم تتخيل عقولهم أن الابن سيصفع والده وسيركل أمه فأخبرهم بأن الرجل يسب رجلًا بأبيه، فيرد عليه بمثل ما قال.

"لا يدخل الجنة منان ولا عاق ولا مدمن خمر".

قال عطاء بن يسار: كنت جالسًا عند عبد الله بن عباس إذ أتاه أعرابي فقال: إني خطبت امرأة فأبت وخطبها غيري فتزوجته، فغدوت عليه فقتلته، فهل لي من توبة؟

فقال ابن عباس: ألك والدان حيان أو أحدهما؟

قال: لا.

فقال ابن عباس : تقرب إلى الله -عز وجل- بما قدرت عليه.

فقلنا له بعدما خرج الأعرابي من عنده:

ما كنت ترجو له لو كان أبواه حيين أو أحدهما؟

فقال ابن عباس : ليس شيء أحط للذنوب من بر الوالدين.

سُئل النبي -صلى الله عليه وسلم-: أي العمل أفضل؟

قال: الصلاة على وقتها قيل: ثم أي؟ قال: بر الوالدين. قيل: ثم أي؟ قال: الجهاد في سبيل الله.

انظر، قد جعل النبي بر الوالدين بين عملين عظيمين في الإسلام، الصلاة وهي عماد الدين وأول ما يُحاسب عليه العبد من عمله، والجهاد في سبيل الله، وهو ذروة سنام الإسلام.

كان حارثة بن النعمان يُطعم أمه بيده، ولم يستفهمها كلامًا قط تأمره به حتى إذا خرجت سأل من عنده ماذا قالت أمي.

لا أرى أن مداد لغتي يوفي الرجل حقه، بلغ به البر أنه لا يراجع أمه كي يستفهم ما قالت ويعي منطقها، فلو رأى الأم الآن يُضرب بكلامها عرض الحائط ماذا كان يصنع؟ ربما لتجمد الدم في عروقه أو مات كمدًا حين يرى دموع الأم وتوسلاتها لا تُقابل إلا بالتجاهل والاستخفاف.

روى أحمد في مسنده أن أنسًا -رضي الله عنه- قال:

"من سره أن يمد له في عمره ويزداد في رزقه فليبرّ بوالديه وليصل رحمه".

هل تريد التوفيق في كافة أمورك...

"وبرا بوالدتي ولم يجعلني جبارًا شقيًا".

هل تريد رضا الله عنك؟

"رضا الله في رضا الوالدين، وسخط الله في سخط الوالدين".

هل ترجو لنفسك الثواب الجزيل؟

جاء رجل إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- يستأذنه في الجهاد

فقال: أحي والداك؟ قال: نعم.

قال: فيهما فجاهد.

لأن برهما يجمع من المحاسن أفضلها ومن المحاب أنفعها.

فإذا كنت تبحث عن الجنة، فهي تحت قدم أمك، وإذا أردت أن يقضي الله لك حاجة، فاهمس في صدر والدك ليدعو لك بها، وقد جاء في الحديث ثلاث دعوات مستجابات.. منها دعوة الوالد على ولده، وليعي الأبناء أن دعوة الوالد أو الأم للولد أو عليه مستجابة

قال الحسن: دعاء الوالدين يُنبت المال والولد.

فلعل دعوة من والديك يعظم بها جاهك أو يزداد بها مالك أو يكثر بها علمك أو يُثمر بها قلمك أو يُرفع بها غمك أو ينجو بها ولدك.

كان رجل يقوم على خدمة والده، ثم سئم منه وملّه، فحمله على ظهر دابة، وخرج به إلى الصحراء، فاستشعر الأب من ابنه الريبة، فقال: ما تصنع بي هنا يا ولدي؟

فقال: أريد أن أذبحك فقد ضقت بك ذرعًا ومللت من خدمتك.

فقال الرجل مستسلمًا: إن كنت فاعلًا، فاذبحني عند تلك الصخرة.

فقال: يا أبتاه ما ضرك أن أذبحك هنا أو هناك.

فقال: اذبحني عند تلك الصخرة، فقد ذبحت أبى عندها، ولك بمثلها.

عاقبة العقوق مهلكة في الدارين والمشتكى إلى الله، فقد امتلأت قلوب الآباء حرقة من عقوق أولادهم، وانهمرت دموع مما لحق بها من الأذى، وقد اكتحلت بالسهر لتداوي وترعي صغيرًا شبّ على الجحود، وقد غره شبابه أو ترفع بثقافته وتكبر بجاهه، فضلّ وذهب بضلاله لبعيد، فأودع أبويه دار المسنين والعجزة.

ولعل دعوة جبريل -عليه السلام- تصيبه "رغم أنف رجل أدرك أبويه عند الكبر أحدهما أو كليهما ولم يدخلاه الجنة" أي خاب وخسر وعرض نفسه للذل والهوان، وقد أمّن عليها خير الأنام، وقال: آمين.

رأى ابن عمر رجلًا يطوف بالكعبة حاملًا أمه حول عنقه.

فقال الرجل: يا ابن عمر أترى أني جزيتها.

فقال: لا ولا بطلقة واحدة من المخاض، ولكنك أحسنت إليها، والله يثيبك على القليل كثيرًا.

مرض الابن، فأنفق الأب المال الذي معه، واقترض وباع شيئًا من متاع بيته، وكان يدعو ويتضرع: يا رب هب له من عمري.

كبر الابن واشتد عوده فمرض الأب، فتأفف الابن وضجر من سداد فاتورة الرعاية، وطلب من الناس أن يدعو لوالده بالرحمة أي يُعجل الله بموته.

جاء رجل إلى النبي، وقال: إن لي مالًا وولدًا، وإن أبي يريد أن يجتاح مالي. فقال: أنت ومالك لأبيك.

قال رجل لابن عباس: إني نذرت أن أغزو الروم، وإن أبواي يمنعاني.

قال: أطع أبويك، فإن الروم ستجد من يغزوها عنك.

وقال يزيد ابن أبي حبيب: إيجاب الحجة على الوالدين عقوق أي الانتصارعليهما بالكلام.

قال علي -رضي الله عنه-: لو علم الله شيئًا في العقوق أدنى من "أف" لحرمه.

فما بالك بمن يرفع صوته أو يحد النظر أو يُشيح بيده والأسوأ من ذلك ما نشرته الصحف بأن شابًا أراد أن يأخذ مالًا من معاش والده

ليشتري المخدرات فمنعه الوالد، فأمسك الشاب بسكين وطعن والده، ولما تصدت له والدته طعنها هي الأخرى.

قال -صلى الله عليه وسلم-: "الوالد أوسط أبواب الجنة، فإن شئت فأضع ذلك الباب أو احفظه" هو لم يحفظ الباب أو ضيعه فحسب، بل أتى على عاليه وسافله بالطعنات حتى أرداه قتيلًا، وألحق به أمه، قتلهما بدم بارد بعد أن ماتت فيه كل معاني الإنسانية وكرم الطباع، فانظر ما صنع به العقوق، وتأمل على الضفة الأخرى ماذا صنع البر بالربيع بن خثيم.

كان الربيع يميط الأذى من طريق والديه، ويقول: هذا لأمي وهذا لأبي.

يقول سعيد بن سفيان الثوري: ما دعاني أبي قط وأنا في صلاة غير مكتوبة إلا قطعت صلاتي من أجله.

والآن تجد من يناديه والده، فلا يأبه لقوله، وربما تهكم به أمام أقرانه، ويجف حلق أمه فيمضي ولا يلتفت، وتجد مراهقًا من سنه يناديه فيسرع ويُلبي نداءه أو أحمق على شاكلته يدعوه فيهرول نحوه.

وعلى وجه مشابه من الجفاء تجد فتاة يافعة تتكئ على أمها في أعمال البيت، ولا تقدم لها يد المساعدة، ظنًا منها أنها ملكة في بيت أبيها فأخطأت وتعثر فهمها أن تلد الأمة ربتها. فعندما تتزوج ستجد نفسها في بيت الزوجية كتمثال لا يقوى على رفع كوب من موضعه.

كان محمد بن سيرين إذا اشترى لوالدته ثوبًا اشترى ألين ما يجد.

ما زلت أذكر فلانًا وهو يهرول على الدرج، وكاد أن يتعثر يحمل الفاكهة لأبنائه ويدخل بها سرًا حتى لا تراه أمه.

يقول وهب بن منبه:

أوحى الله -تعالى- إلى موسى -عليه السلام-: يا موسى وقّر والديك، فإن من وقّر والديه مددت له في عمره ووهبت له ولدًا يبره، ومن عقّ والديه قصرت عمره ووهبت له ولدًا يعقّه.

قال هشام بن حسان: قلت للحسن البصري:

إني أتعلم القرآن، وإن أمي تنتظرني بالعشاء.

فقال الحسن: تعش مع أمك تقرّ به عينها أحب إليّ من حجة تحجها تطوعًا.

من مظاهر عقوق الوالدين:

- عدم الاعتداد برأيهما وترك استشارتهما.
- الضجر ورفع الصوت في حضرتهما.
- يبتدر الحديث ويتصدر المشهد في وجودهما.
- حجب النفقة عنهما وإيثار رضا زوجته وأولاده.

تعالَ أتحفك بباقة من الكلمات الندية عن البر:

سئل الحسن البصري: ما بر الوالدين؟

تبذل لهما ما ملكت وتطيعهما فيما أمراك به ما لم تكن معصية.

قال ابن عباس في قوله -تعالى-: "وبالوالدين إحسانًا".

لا تنفض ثوبك فيصيبهما الغبار.

وقال عروة في قوله -تعالى-: "واخفض لهما جناح الذل من الرحمة".

لا تمنعهما من شيء أحباه.

قال سفيان بن عيينه في قوله -تعالى-: "أن اشْكُرْ لي ولوالديك"

من صلى الخمس، فقد شكر الله، ومن دعا لوالديه عقبهما فقد شكرهما.

قال بعض السلف: ترك الدعاء للوالدين يُضيق العيش على الولد.

قال عون بن عبد الله: النظر إلى الوالدين عبادة.

سمع عمر الفاروق برجل قتل نفسًا بغير ذنب، فقال:

والذي نفس عمر بيده لو كانت أمه حية فبرها وأحسن إليها، لرجوت ألا تطعمه النار.

لما ماتت أم إياس بن معاوية بكى، وقال: باب إلى الجنة قد أغلق.

لعل مقصرًا يملأ الندم جوانحه عن تفريطه في حق والديه، ويخشي غضب الله، ويخشى مثل ما صنع من أبنائه.

الباب مفتوح اذهب إليهما وأحسن صحبتهما، وتعطر من غبار أقدامهما واستدرك ما فاتك:

تمتلئ عيناه بالدموع، ويقول مات أبي وتوفت أمي، وخرج الحجر من يد راميه.

قال رجل لكعب الأحبار: أحتسب عند الله ما فاتني من بر الوالدين.

فقال كعب: لم يفتك برُّهما استغفر لهما واجعل لهم حظًا من طاعتك تكن من الأبرار. فتصدق عنهما واذكرهما في دعائك.

روى البيهقي في شعب الإيمان:

"إن العبد ليموت والداه أو أحدهما، وإنه لهما لعاقّ، فلا يزال يدعو لهما ويستغفر لهما حتى يكتبه الله بارًا".

لقي ابن عمر أعرابيًّا بطريق مكة فسلم عليه عبد الله وحمله على حمار كان يركبه، وأعطاه عمامة كانت على رأسه فقيل له: يا ابن عمر، إن هذا من الأعراب، وإنهم ليرضون باليسير. فقال: كان أبوه ودًّا لأبي عمر، وقد سمعت النبي -صلى الله عليه وسلم-: "إن أبر البر صلة الرجل أهل ود أبيه".

هل أقرأ عنهما القرآن؟

اختلف الفقهاء في الأمر، ولكن اقرأ سورة، ثم بعد أن تنتهي ادع الله أن يجعلها في ميزان حسنات الوالد أو الوالدة، فإما أن يقبل الله دعاءك أو يبقى لك الأجر.

العُجب

هل تذوقته من قبل؟

طلب التلميذ من شيخه أن يدعو له، فدعا الشيخ قائلًا: أسأل الله ألا يُذيقك طعم نفسك.

روي أن عابدًا من بني إسرائيل أمضى ليلته متعبدًا، فلما أصبح وجد الناس في غفلة، فقال: نعم الرب أنت ونعم العبد أنا، فلما كانت الليلة التالية، وأراد أن يتعبد ضرب عليه عرق في يده، فظل يتأوه الليل كله، ولم يُصلِّ ولم ينم، فلما أصبح انتبه، وقال: يا رب عبدتك بحسن توفيقك، ولولا حسن توفيقك لكنت من الغافلين.

رحم الله المطرف بن عبد الله، فقد كان من كلامه:

لئن أبيت نائمًا، وأصبح نادمًا أحب إليّ من أن أبيت قائمًا وأصبح مُعجبًا.

لعل في نفسك هذا السؤال:

ما معنى العجب وما الفرق بينه وبين الكبر؟

أطرح سؤالك برمته على عبد الله بن المبارك.

العجب: أن تنظر لنفسك بعين الكمال وترى أن عندك شيئًا ليس عند غيرك.

الكبر: أن تَزْدَرِي الناس.

هل المعنى قريب وتريد مثالًا توضيحيًا يفض اشتباكًا بين المعنيين.

تخيّل أن رجلًا عاش في جزيرة لا يقطنها سواه، فهل سيشعر بالعجب أم يكون في صدره الكبر؟

يقينًا سيشعر بالعجب وينظر لنفسه بعين الكمال، ولن يشعر بالكبر أو يزدري أحدًا حيث يعيش بمفرده.

روي في الصحيح عن أبي هريرة:

"بينما رجل يمشي في حلة تُعجبه نفسه، مُرجل رأسه يختال في مشيته، إذ خسف الله به الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة".

لم تكن البلية في زينته، فإن الله جميل يُحب الجمال، ولكن طامته كانت في العُجب والاختيال.

فهذا حال المُعجب يزهو بنفسه ينسب كل نعمة إلى ذاته، وينسى المنعم، ولا ينكسر بين يدى ربه ومولاه، ولا يشعر بعبوديته لله -جل في علاه-.

معبد بن زرارة كان جالسًا في الطريق فسألته امرأة: أين موضع كذا يا عبد الله؟

فقال: أمثلي يكون من عبيد الله يا امرأة؟

رأى ذنوبه تحول بينه وبين شرف العبودية لله، فتمام العبودية لله في الذل والانقياد والانكسار بين يديه -عز وجل-.

قال عبد الله بن المبارك: لا أعلم في الناس شيئًا شرًا من العجب.

قال كعب الأحبار لرجل حضر مجلسه ليأخذ عنه الحديث، وكان يتخطى الناس ليدنو منه:

اتق الله، وارض بدون الشرف من المجلس، ولا تؤذين أحدًا فإنه لو ملأ علمك ما بين السماء والأرض مع العُجب، ما زادك الله به إلا سفالًا ونقصًا.

لعلك تريد أن تسأل عن أمارات يجدها المعجب في نفسه لتطمئن أنك بمنأى عنها.

- الاختيال في مشيته:

مشى المهلب متبخترًا فقال له المطرف بن عبد الله: هذه مشية يُبغضها الله ورسوله، فقال له المهلب: ألا تعرفني؟

فقال المطرف: بلى أعرفك، أولك نطفة مذرة، وآخرك جيفة قذرة، وفي بطنك تحمل العذرة.

فاعتدل المهلب في مشيته ومضى.

- التفاخر بالحسب والنسب وجمال الخلقة:

جلس رجل عند نبي الله موسى، وظل يفتخر بأهله وعشيرته فأوحى الله إلى موسى: بلغ صاحبك بأن تسعة من أجداده في النار، وهو عاشرهم.

- توقع الجزاء الحسن والمغفرة:

قيل لعائشة -رضي الله عنها-: متى يكون الرجل مسيئًا؟

قالت: إذا ظن أنه محسن.

فالملائكة التي لا تفتر عن العبادة يقولون: ربنا ما عبدناك حق عبادتك.

وإبراهيم الخليل الذي كان أمة يُفصح عن أمنيته التي يرجوها:

"والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين"

- رد الحق والإصرارعلى الخطأ:

حتى لا يلحق بنفسه العيب تجده يُكابر ويعاند ويبرر، ولا يرجع عن خطئه وتجده يتعمد مخالفة الناس ترفعًا، وربما افتعل المواقف ليُبرز نفسه.

قال خالد بن يزيد بن معاوية: إذا رأيت الرجل لجوجًا ماريًا معجبًا بنفسه، فقد تمت خسارته.

عبد الله بن الحسن العنبري قاضي البصرة سألوه في مسألة فأجاب فنبهه بعض الحضور إلى خطئه فأطرق رأسه ثم نظر لمن حوله وقال: إذًا، أرجع وأنا صاغر، لئن أكون ذنبًا في الحق خير لي من أن أكون رأسًا في الباطل.

تعالَ نضع نقطة ونسأل سؤالًا أنتظره منك: ما حكم العجب؟

من الأندلس تأتيك الإجابة:

قال ابن حزم: إن العجب من أعظم الذنوب وأمحقها للأعمال، فتحفظوا، حفظنا الله وإياكم من الرياء والعجب.

قال كعب الأحبار: إياكم والعجب، فإنه الذبح والهلاك.

٢ شفاء الصدور من داء العجب والغرور:

اعلم -يرحمك الله- أن كل نعمة أو موهبة عندك هي من عند الله، فكل خير تتمتع به هو فضل من الله ومنة "وما بكم من نعمة فمن الله"، فالعبد لا يملك من أمره شيئًا، لذا تجده يصيب ويخطىء، فأناشدك بالله ألا تنسى ذنوبك، واجعلها نصب عينيك حتى تجتهد في العبادة وتواجه تقصيرك بحزم وهمة، وألا تغتر بثناء الناس عليك مهما بلغ بك الصلاح، فلن تكون أكرم في نفوس الناس من الإمام أحمد حين أخبره المروذي ما أكثر الداعين لك، فامتلأت عين ابن حنبل بالدموع، وقال: أخشى أن يكون هذا استدراجًا، واحذر -عافاك الله- أن يأتيك العُجب من باب القوة، وكأنك بها تجهر: "من أشد منا قوة" وتغتر بقوة الجسد والعشيرة والمنصب، فلن يُغنوا عنك من الله شيئًا والمال إلى زوال "وما يُغني عنه ماله إذا تردَّى"، فلا تأخذك به عزة زائفة، وتقول: "أنا أكثر منك مالًا وأعز نفرًا" ولا تدع إعجابك بشهادة نِلتها أو علم وعيته في صدرك يُنسيك الحقيقة "وما أُوتيتم من العلم إلا قليلًا" ولو كان إعجابك بوسامة افترشت وجهك أو عقل رجح على أقرانه، فأسألك بالله هل لك في ذلك فضل؟

بشر بن منصور من مشاهير العباد، أطال الصلاة يومًا ورجل خلفه ينتظره، فلما سلم من صلاته انتبه للرجل وقال: "لا يعجبنك ما رأيت مني، فإن إبليس عبد الله مع الملائكة، ثم صار إلى ما صار".

تجفيف المنابع وقاية لا غنى عنها..

لا تصاحب المداحين ولا تناولهم أذنك، فحديثهم يُغذي روافد العجب في نفسك، فاحذر أن تفتنك جموع المتملقين من حولك فلو كان بي قوة لحثوت في وجوههم التراب، فالويل لهم كادوا يقطعوا عنقك.

قال رجل لعبد الله بن عمر -رضي الله عنه وعن أبيه-:

يا خير الناس وابن خير الناس.

فقال: ما أنا بخير الناس ولا ابن خير الناس، ولكني عبد الله أخافه وأرجوه، ولا تزالوا بالرجل حتى تُهلكوه.

خرج ابن مسعود ذات يوم، فأتبعه بعض الرجال، فسألهم: ألكم حاجة؟ قالوا: لا، ولكن أردنا أن نمشي معك.

قال: ارجعوا، فإنه ذلة للتابع وفتنة للمتبوع.

قيل لعمر بن عبد العزيز -رحمه الله-: إن مت ندفنك في حجرة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

فقال: لأن ألقى الله بكل ذنب غير الشرك أحب إليّ من أن أرى نفسى أهلًا لذلك. وكان -رحمه الله- إذا تكلم وأعجبه كلامه قطعه وعدل إلى كلام لا عجب فيه.

قال إسحاق بن خلف -رحمه الله-: ليس شيء أقطع لظهر إبليس من قول ابن آدم ليت شعري بما يُختم لي، فييأس منه ويقول متى يُعجب هذا بعمله.

الآن أطلب منك تكرمًا أن ترجع معي بعقارب التاريخ إلى العام الثامن من الهجرة لنرى ماذا فعل العُجب بمعسكر الإيمان حين بلغ جيشهم اثني عشر ألفًا حتى قال أحدهم: لن نُغلب اليوم من قلة، ولو استحضر قوله -تعالى-: "وما النصر إلا من عند الله" لسكت وكان خيرًا له، فقد دارت رحى الحرب، وأتت ضربة البداية عنيفة من معسكر الكفر، فتقهقر الصحابه وولوا مدبرين وضاقت عليهم أرض المعركة حين اغتر البعض بالعدة والعتاد، ولم يثبت منهم إلا نفر قليل "ويوم حُنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تُغن عنكم شيئًا".

كاد العُجب أن يُهلكهم لولا أن أدركتهم رحمة الله، فجاءهم النصر بعد بداية تعثرت فيها الخطى.

يقول ابن مسعود: الهلاك في شيئين: العُجب والقنوط.

جاء في بعض الأخبار:

"يا داود، بشّر المذنبين، وأنذر الصديقين" فتعجب داود وقال: يا رب كيف أبشّر المذنبين، وأنذر الصديقين؟

فقال -عز وجل-: "يا داود بشر المذنبين ألا يتعاظمني ذنب أغفره، وأنذر الصديقين ألا يُعجبوا بأعمالهم".

حيث يظن المُعجب أنه ظفر بمراده وبلغ الكمال، فيتجرع مرارة الحسرة، فكلما أعجبتك نفسك واستحسنت شيئًا منها فازجرها، وأنت لها رابح.

نادى عمر بن الخطاب الصلاة جامعة، فاجتمع له الناس.

فقال: لقد كنت أرعى الغنم على حفنة من التمر.

فقال له ابن عوف: لقد حقرت نفسك.

فقال عمر: حدثتني نفسي بأني أمير المؤمنين، فأردت أن أؤدبها وأعرفها قدرها.

رضي لنفسه بالإهانة وهو خليفة المسلمين، فمن أنا ومن أنت؟!

مر رجل بمجلس فأثنوا عليه خيرًا، فلما جاوزهم وسمع قولهم قال: اللهم إن كان هؤلاء لا يعرفوني فأنت تعرفني.

اعترف بذنبه وأقر بتقصيره وألزم نفسه أرض العبودية حتى لا يرفعه الغرور، ويُلقي به في الهاوية، فما زلت أذكر نفسي وإياك لا شيء أفسد للطاعات من العجب ورؤية النفس.

قال محمد بن واسع: ذهب أصحابي.

فقال له جليسه الحارث بن نبهان:

أليس قد نشأ شباب يصومون النهار ويقومون الليل، ويجاهدون في سبيل الله.

قال: بلى، ولكن أفسدهم العُجب.

وفي الختام دعني أسألك سؤالًا طرحته عليك في البداية:

هل تذوقته من قبل؟؟؟

سلامة الصدر

قيل لأبي البشر: حدثنا عن عمل السابقين.

فقال: كانوا يعملون قليلًا ويؤجرون كثيرًا.

قيل: بمَ ذلك؟

فقال: بسلامة صدورهم.

يقول عبد الله بن عباس: إني لأسمع أن الغيث أصاب بلدًا من بلدان السلمين، فأفرح، وليس لي فيها إبل ولا سائمة.

المطر خير ينتفع به الزرع والضرع، وحين يرتقي لسمعه أن الغيث قد وقع على بلدة فيفرح، وليس نفعًا يعود عليه من ذلك، ولكنه يفرح لأن الخير أصاب المسلمين.

قلوب تقية لا تحمل غشًا ولا حسدًا، بل تفرح حين يدُرك الخير مسلم يعيش في أقصى المشرق، وتحزن لو جُرح آخر يحيا في أقصى المغرب، فما بينها وبين الناس كما بين العين واليد، تبكي العين فتمسح اليد دمعها، وتتألم اليد فتبكي العين على وجعها.

يقول عبد الله بن المبارك: ما رأيت أحدًا ارتفع مثل الإمام مالك، وليس له كثير صلاة ولا صيام إلا أن تكون السريرة؟

قال الله -تعالى-:

"يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم".

قلب سليم من الشرك والنفاق والحقد والحسد...

سئل النبي -صلى الله عليه وسلم-: أي الناس أفضل؟

فقال: كل مخموم القلب صدوق اللسان.

فقالوا: صدوق اللسان نعرفه، فما مخموم القلب؟

فقال: هو التقي النقي، لا إثم فيه ولا بغي، ولا غل ولا حسد.

وكان -صلى الله عليه وسلم- يمسح الدم عن وجهه بعدما اعتدى عليه قومه ويدعو لهم: "اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون".

تأخر الإمام مالك عن حلقة الدرس فقام تلميذه محمد بن إدريس المُلقب بالشافعي، فجلس مكانه، وأخذ يُحدث الطلاب، فأقبل الإمام مالك، فوجد الشافعي قد أخذ مكانه فما وبخه ولا نهره، بل جلس إلى جوار سارية يستمع إليه وكتب على السارية:

من أراد العلم النفيس، فليجلس إلى محمد بن إدريس.

فلما انتهى الشافعي انتبه إلى ما كتبه شيخه وكتب أسفل منها:

كيف يكون ذلك والشافعي تلميذ مالك.

عبد الله بن المبارك كان إذا سمع الفضيل يتكلم ويعظ الناس قبّل جبهته، وقال: يا معلم الخير، من يُحسن هذا غيرك.

قلوب نقية لم يُفسدها التنافس، ويُلقي بها في جُبّ الحسد، أو تسلك الغيرة بها مسلكًا لتنال منها، فعاشوا دنياهم بسكينة ورحلوا بضَيّ يكسو محياهم. تهلل وجه أبو دجانة عند موته، فسألوه في ذلك.

فقال: ما عملت في الإسلام عملًا أرجى عندي من شيئين: كان قلبي للمسلمين سليمًا، ولم أكن أتكلم فيما لا يَعنيني.

بعض الناس يريد أن يضع أنفه في كل شيء ليعرف شتى التفاصيل في أمور من حوله "ومن حُسن إسلام المرء تركه ما لا يَعنيه".

وقع شيء من الشر بين ابن السماك الواعظ وأحد أصحابه، فقال له صاحبه: الميعاد بيني وبينك غدًا نتعاتب.

فقال له ابن السماك: غدًا نتغافر.

قال ابن العربي: "لا يكون القلب سليمًا إذا كان حقودًا حسودًا معجبًا متكبرًا، وقد شرط النبي -صلى الله عليه وسلم- في الإيمان: "أن يحب المرء لأخيه ما يحب لنفسه".

فكل من حمل على متن قلبه الحقد والحسد وملأ جوانبه بالشحناء والتدابر، فقد خسر كثيرًا، وفاته أجر عظيم.

قال -صلى الله عليه وسلم-: "تُعرض الأعمال كل يوم اثنين وخميس فيغفر الله -عز وجل- في ذلك اليوم لكل امرئ لا يشرك بالله شيئًا إلا امرئ بينه وبين أخيه شحناء، فيقول: انظروا هذين حتى يصطلحا".

من الثمرات الطيبة التي يجنيها صاحب الصدر السليم راحة البال، وتجنب العداوات، وصفاء النفس، وخلوها من الكدر، فسامح وتغافل وتجاهل، وتناسَ، وأحسن الظن بإخوانك، وقد قال الفاروق: لا تحمل كلمة أخيك على محمل الشر طالما وجدت لها من الخير محملًا. فامضِ في طريقك ولا تلتفت للعداوات، فقد تكون عقوبة من الله لبعض خلقه أن يشغلهم بالخصومة والتشاحن، تَمَنَّ الخير لمن حولك فرزق الناس لن يكون من مالك، وعافية الناس لن تكون على حساب صحتك، وقد قال أحد الدعاة: قد تأتيك النعمة لأنك تمنيتها لغيرك.

دخل رجل يشتري من دكان، فقال له صاحب الدكان: البضاعة التي تريدها عندي، لكن أرجو منك أن تشتريها من عند جاري فتعجب الرجل: ولمَ تأبى أن تبيع لي.

فقال قد بعت اليوم، وأكرمني الله وربحت، وأوشك النهار أن ينتهي وجاري ما باع شيئًا منذ الصباح، والبضاعة التي عندي مثلها عنده، وسيبيعها لك بنفس السعر.

قال الحافظ بن رجب:

المؤمن يسره ما يسر أخاه المؤمن، ويريد لأخيه المؤمن من الخير ما يريده لنفسه، وهذا كله إنما يأتي من سلامة الصدر.

قال أحد السلف: ما حسدت أحدًا منذ أن قرأت قوله -تعالى-: "نحن قسمنا بينهم معيشتهم" فقد علمت أن القسمة من الله.

في العام الثامن من الهجرة رجع النبي إلى مكة فاتحًا منتصرًا بعد أن خرج منها متخفيًا ودمعه على خده، ويقول: لولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت، فعاد وراية الإسلام خفاقة في عشرة آلاف فارس أو يزيدون، ولا طاقة لأهل مكة بقتالهم، فاجتمع أهل مكة حوله، وقال لهم: ما تظنون أني فاعل بكم؟ فقالوا: أخ كريم وابن أخ كريم. فقال: اذهبوا فأنتم الطلقاء.

وحين سمع أحد أصحابه يقول: اليوم يوم الملحمة، أي إعمال السيف والثأر، ورد الاعتبار، فقال -صلى الله عليه وسلم-: اليوم يوم المرحمة، يوم العفو والصفح.

يُنادى يوم القيامة: أين الذين وقع أجرهم على الله، فيقوم جماعة من الناس، فيُقال لهم: من أنتم؟ فيقولون: نحن الذين ظُلمنا فعفونا.

"فمن عفا وأصلح فأجره على الله".

فامض ولا تلتفت "ولا يحزنك قولهم" ولا تجعل من قلبك قبرًا تختبئ فيه العداوات "فاصفح عنهم وقل سلام" وقد علمتنا السيرة بأن العفو من شيم الكرام.

يريد البعض أن يسمو بروحه، ويصل إلى هذا النقاء، ولكن تغلب عليه شرور نفسه فيرجع وهو حسير، فيملّ ويبقى السُمّ بأحشائه، والأمر يحتاج إلى صبر ومجاهدة لننزع ما اكتسبته القلوب من حقد، فتعالَ نبحث عن تِرْياق.

خطوات الشفاء

إفشاء السلام...

"أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم"

تحية الإسلام السلام، ليس صباح الخير أو كيف الحال، وإلقاء السلام له أثر السحر في النفوس، حيث ينزع عنها الحقد والضغينة، فلا تُعرض بوجهك، وكن صاحب الفضل وابدأ بالسلام.

"تهادوا تحابوا".

مهما كانت قيمة ما تُهديه قليلة، فقد تفتح لك مغاليق القلوب، وتجلب لك المحبة والشعور بالأنس.

"وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم".

فالعفو والتجاوز والموادعة تنزع فتيل الشر، فمن عصا الله فيك أطع الله فيه، وكنت أصنع هذا الأمر كلما نشب خلاف بيني وبين صديق أستحضره بخيالي وأتعاتب معه، فأقوم خفيفًا ولا أدع الشيطان يوغر صدري تجاهه، ثم أدعو الله راجيًا له كل نفع، وإن بقي في نفسي شيء أذكره بالخير بين الناس.

دع الجدل وأنت الرابح:

يقول أبو الدرداء: إن كان لك أخ في الله فلا تماره فلا تجادل، فالجدل يُعكر الصفو ويقطع حبل المودة، ومن يفتح على نفسه باب الجدل يُغلق بينه وبين الناس باب المحبة. فالجدل والمغالبة بالرأي حول الكرة والسياسة والدين وتريند الأحداث سيصل بنا إلى الحبل المقطوع، حبل الصداقة الذى كان مجدولًا سيغرق في وهنه كخيط عنكبوت، والرحم التي تعوذت من القطيعة ستشكو هجْر أهلها.

سُئل الإمام مالك: الرجل العالم بالسنة أيُجادل بها؟

فقال: يُخبر بها، فإن قُبلت وإلا فسكت.

إياك والظن، فإن الظن أكذب الحديث، فليس كل من يقف في شرفة منزله يَسرق النظر إلى ابنة الجيران، وليس كل من تأخر في تهنئتك كارهًا لنجاحك، ولا كل من خانته كلماته يضمر لك الشر.

مرض الشافعي -رحمه الله- فأتاه أحد إخوانه يعوده، ودعا له قائلًا: قوّى الله ضعفك يا إمام، فقال الشافعي: لو قوَّى ضعفي لقتلني. قال: والله ما أردت إلا الخير. فقال الشافعي: حتى لو شتمتني ما ظننت بك إلا الخير.

لا تناول أذنك لأحد.

من نمَّ لك سينمُّ عليك، فلا تعطِ فرصة لأحد أن يكلمك عن آخر بسوء: "ولا تطع كل حلاف مهين هماز مشاء بنميم".

قال -صلى الله عليه وسلم-: "لا تخبروني عن أحد من أصحابي شيئًا، فإني أحب أن أخرج إليكم سليم الصدر".

عن الفضل بن أبي عياش قال: كنت جالسًا مع وهب بن منبّه، فأتاه رجل، فقال: إني مررت بفلان وهو يشتمك، فغضب وهب وقال: ما وجد الشيطان رسولًا غيرك؟ فما برحت من عنده حتى جاءه ذلك الرجل الشاتم، فسلم على وهب، فرد عليه. ومد يده وصافحه، وأجلسه إلى جواره.

فبارك الله في صنيعه، أطفأ نار عداوته، وتلاشى الخصومة معه وأجهز على الفتنة في مهدها، وهكذا يقول العامة في بلدي: الشر إذا بات مات.

٢ فض اشتباك بين المعاني:

هل معنى سلامة الصدر أن أكون شخصًا مغفلًا تطل من عينيه السذاجة، فيقع في شراك الناس؟

سلامة الصدر معناها عدم إرادة الشر بعد معرفته.

الغفلة معناها قلة المعرفة بالشر، فيلحق بالمرء الضرر.

الدعاء دواء فعال.

كان من دعائه -صلى الله عليه وسلم-:

"اللهم إني أسألك قلبًا سليمًا ولسانًا صادقًا" رددها في سجودك، وألحّ بها على ربك، فلو صلح القلب صلح الجسد كله.

قال ابن الجوزي: "لقد رأيت من يكثر الصوم والصلاة والصمت، ويتخشع في نفسه وثيابه، والقلوب تفر منه، ورأيت من يلبس فاخر الثياب، وليس له كثير نفل، ولا خشوع، والقلوب تتهافت على محبته، فتدبرت السبب فوجدته السريرة".

فمن أصلح سريرته أصلح الله علانيته، وهكذا حال الصالحين سرائرهم أنقى من صورهم، تعرفهم بسيماهم فتنجذب، وتطمئن إليهم من الوهلة الأولى، على غير رحم بينكم أو نفع مشترك يميل إليهم قلبك، وحين تراهم ترتسم على محياك ابتسامة تلقائية، أما من يدعي ويتظاهر

فخدعته لن تدوم طويلًا. والمواقف وحدها تكشف معادن الناس، فتعالَ معي نتأمل حال هؤلاء القوم الذين نزعوا حظ الشيطان من صدورهم، وضنوا بقلوبهم أن ترتع فيها الأحقاد، فلعلنا نلحق بهم أو نسير على دربهم.

لصوص في ساحة الأولياء:

الله -عز وجل- يقول: "وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم".

فنعفو ونصفح، ليس عن عجز وضعف، ولكن رغبة فيما عند الله من الثواب ورجاء المغفرة.

كان عمر -رضي الله عنه- يمشي في السوق فاقترب منه لص على دابة، وسرق عمامته، وجرى فركض عمر خلفه، ونادى عليه بصوت جهوري: أشهد الله أني وهبتك إياها، فقل قبلت حتى لا تمسك النار.

ظننت أن عمر سيركض خلفه ليرد اعتباره ويستعيد عمامته، ولكنه كان يخشى عليه من مغبة الذنب، فبحث له عن مخرج فوهبها له عن طيب خاطر.

عبد الله بن مسعود كان من فقراء الصحابة حتى إن زوجته زينب كانت تعطيه من زكاة مالها، وفي أحد الأيام ذهب ليشتري من السوق،

فلما وقف عند البائع لم يجد كيس نقوده، ففطن أن اللص قد استله منه، وحين علم الناس في السوق أن الصحابي الجليل ابن مسعود سُرق ماله اغتموا ودعوا على اللص، فقال ابن مسعود: من الذي سُرق ماله؟ قالوا: أنت، قال: أنا أدعو وأنتم تؤمّنون على دعائي، فقال: اللهم إن كان عبدك هذا في حاجة إلى مالي فبارك له فيه، وإن لم يكن في حاجة إلى مالي فاجعلها آخر معصية له، وتب عليه.

لمَ لمْ يدعو على اللص بأن ينفق المال عند الأطباء أو تصرعه دابة ويهلك، تملكني الذهول، فمع فقره وحاجته لم ينقم على اللص، ودعا له بالبركة والهداية.

جلس الفضيل بن عياض في الحرم، فجاءه رجل من خراسان يبكي، فقال له الفضيل: ما يبكيك؟ فقال: فقدت دنانيري، فعلمت أنها قد سُرقت مني فبكيت، قال الفضيل: أتبكي من أجل الدنانير؟

قال الرجل: لا، لكني بكيت لعلمي أني سأقف بين يدي الله أنا والسارق، فرحمت السارق فبكيته.

مخالفة الفعل للقول

عظوا الناس بأفعالكم لا بأقوالكم.

"يا أيها الذين ءامنوا لمَ تقولون ما لا تفعلون، كبر مقتًا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون"

جاء جماعة من العبيد إلى الحسن البصري، وقالوا: يا إمام حدث الناس في خطبة الجمعة عن عتق الرقاب. فقال: إني فاعل إن شاء الله فاستبشروا، وكان كل منهم يطمح في الحرية.

فانتظروا حديث الإمام في الجمعة، ثم التي تلتها، فلم يتحدث فأيسوا، وبعد عام خطب الحسن من على منبره عن عتق الرقاب، فجاءوه يعاتبونه: جئناك منذ عام، ولم تتحدث إلا اليوم.

فقال الحسن: انتظرت حتى أتاني مال فاشتريت به عبدًا، وأعتقته، ثم حدثت الناس عن العتق.

خالد بن صفون كان جار الحسن وجليسه في مجلسه فشهد له:

إنه امرئ سريرته كعلانيته وقوله كفعله، إذا أمر بمعروف كان آمر الناس به، وإذا نهى عن منكر كان أترك الناس له، ولقد رأيته مستغنيًا عن الناس زاهدًا بما في أيديهم، ورأيت الناس محتاجين إليه طالبين ما عنده.

قيل لعبد الله بن عمر: توفي فلان الأنصاري.

قال: رحمه الله.

فقالوا: ترك مائة ألف.

فقال: لكن هي لم تتركه.

وقد وافق فعله قوله، جاءته أربعة آلاف درهم وقطيفة، وفي اليوم التالي رآه أيوب بن وائل يشتري علفًا لراحلته بثمن مؤجل.

فذهب بن وائل إلى بيت بن عمر، وسأل أهله عن عطائه الذي جاءه بالأمس.

فقالوا: فرقها البارحة ولم يبت منها شيء، وألقى القطيفة على ظهره، وخرج وعاد، وليست معه فسألناه، فقال: وهبتها لفقير.

فخرج بن وائل يضرب كفًا بكف ثم أتى السوق وارتقى مكانًا عاليًا، وصاح في الناس: يا معشر التجار ما تصنعون بالدنيا، وهذا ابن عمر تأتيه أربعة آلاف درهم فيوزعها في ليلة، ثم يصبح فيستدين علفًا لراحلته.

روى البخاري في مصنفه:

"يؤتى بالرجل يوم القيامة فيُلقى في النار فتندلق أقتاب بطنه (تخرج أمعاؤه)، فيدور بها كما يدور الحمار في الرحى، فيجتمع إليه أهل النار فيقولون: يا فلان ما لك؟ ألم تكن تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ فيقول: بلى، كنت آمر بالمعروف ولا آتيه، وأنهى عن المنكر وآتيه".

وغير تقي يأمر الناس بالتقى طبيب يداوي الناس وهو عليل

وأنا في المرحلة الثانوية كان أحد المشرفين يتعهدنا بالنصح والتوجيه، وكان كثيرًا ما يحذرنا من خطورة التدخين، فكان يحدثنا بحماس، فكان كلامه يملأ أذني ودخانه يملأ أنفي، ما كلف نفسه أن يلقي لفافة التبغ من يده قبل أن يقتحم علينا الفصل.

قال ابن مسعود: من خالف قوله فعله، فإنما يوبخ نفسه.

تحضرني الآن كلمة للإمام أحمد قليلة اللفظ كبيرة المعنى لمن يعي قلبه جدوى العمل لا القول:

"ما بلغني حديث إلا عملت به وما عملت به إلا حفظته".

عن أنس أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال:

"رأيت ليلة أسري بي رجالًا تُقرض شفاههم بمقاريض من نار

فقلت: يا جبريل، من هؤلاء؟

قال: هؤلاء خطباء من أمتك، يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم، وهم يتلون الكتاب، أفلا يعقلون".

وقع الذم هنا على تركه لفعل المعروف مع قدرته عليه، وليس عن أمره به، وكذلك الذم لارتكابه للمنكر، وليس عن نهيه عنه.

فقد قال أبو الدرداء -رضي الله عنه-:

إني لآمركم بالأمر ولا أفعله، ولكن لعل الله يأجُرني فيه.

كان واعظ بالقرب من محمد بن واسع يقول:

ما لي أرى القلوب لا تخشع، والعيون لا تدمع، والأبدان لا تقشعر!

فقال له محمد بن واسع: ما أرى القوم أتوا إلا من قبلك.

فإن الوعظ إذا خرج من القلب وقع على القلب، وإذا خرج من اللسان لا يتجاوز الآذان.

الستر

قال ابن القيم:

للعبد ستر بينه وبين الله وستر بينه وبين الناس، فمن هتك الستر الذي بينه وبين الله، هتك الله الستر الذي بينه وبين الناس.

أُتِيَ برجل إلى الخليفة عمر بن الخطاب ليُقام عليه حد السرقة.

فقال الرجل للخليفة: دعني، فإنها المرة الأولى.

فقال عمر: كذبت ليست المرة الأولى.

فأراد الرجل أن يحرجه ويُنكرعليه ما قال.

وهل اطلعت الغيب؟

فقال عمر: لا، لكن الله لا يفضح عبده من المرة الأولى.

أقاموا عليه الحد، وتبعه علي بن أبي طالب.

وقال: أناشدك بالله، هل هذه المرة الأولى حقًا.

فقال الرجل: إنها المرة الأولى بعد العشرين.

ربما تطمع نفسي في معصية ما، ويزين الشيطان لي الأمر، ويُلقي على خواطري بظلال ستر الله، الذي لا يفضح عبده من المرة الأولى، وسبحانه ربي حيي ستير، يُحب الحياء والستر.

لا أخفيك سرًا الكثير تُحدثه نفسه بمثل هذا.

ولكن خطورة الأمر تكمن في شيئين.

ربما مات العبد مقيمًا على هذا الذنب، أو لا يوفقه الله للتوبة بعد الذنب.

عندما تجد رجلًا من الوجهاء يسرق من مول أو يتحرش بفتاة في مصعد ويفتضح أمره وتكون معصيته ملء السمع والبصر، فاعلم بأن

رصيده من الستر قد انتهى. وقد تجرأ على معصية الله مرارًا فهتك الله الستر الذي بينه وبين الناس، وأصبح حديث الخلق.

قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: "من ستر مسلمًا ستره الله في الدنيا والآخرة".

لا تقل رأيته البارحة يسرق أو يختلي بفلانة حتى لا تشيع الفاحشة في المجتمع المسلم، فلو سترت عليه ربما عاد إلى معسكر الشرفاء، وتلك المرأة لو هتكت سترها وحدثت الناس بأمرها، ربما سكبت ما بقي من حيائها وتمادت في فجورها فيربح الشيطان عاهرة يغوي بها الكثير.

ماعز كان عبدًا لسيده هزال، ارتكب جريمة الزنا مع جارية لسيده، فلما لفحت قلبه حرارة الذنب، شاور أصحابه، فقالوا له: تب إلى الله، ولكن هزال قال له: اذهب إلى النبي ليطهرك، فلما أقر بفعله وذهبوا به ليرجموه، قال لمن ذهبوا في رجمه دعوني، ولكنهم أقاموا عليه الحد.

فلما عادوا أخبروا النبي، فقال -صلى الله عليه وسلم-: "هلّا تركتموه لعله يتوب فيتوب الله عليه".

قال الفضيل: المؤمن ينصح ويستر، والفاجر يهتك ويعير.

لم يتحرَّ النبي عن الطرف الآخر في الجريمه، فلم يسأل ماعز بمن زنيت، ولم يسأل المرأة الغامدية عمن واقعها من باب الستر، فالأصل في الكبائر التوبة ما لم يصل أمر فاعلها إلى الحاكم. وتأمل معي في جريمة القتل تكفي الشهادة من اثنين لإثبات التهمة على القاتل، أما في جريمة

الزنى، فالشهادة من أربع يصفون الفعل وصف مشاهدة فلو شهد ثلاثة وامتنع الرابع عن الشهادة، فإنه يُجلد معهم فطالما أنه يأبى الشهادة فما الذي أتى به؟

رُوي عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال:

"لا يستر عبد عبدًا في الدنيا إلا ستره الله يوم القيامة"

فمن يستر على مسلم، ويواري عثرته ستر الله عليه ذنوبه، ولا يفضحه بها أمام من في أرض المحشر.

ولكن هناك فرق بين الستر والتستر.

الستر: على من تاب أو يُرجى له توبة مع زجره.

التستر: على فاجر يبارز بالمعاصي ولا يرتدع.

وعن الشعبي: أن رجلًا أتى عمر بن الخطاب، وقال:

إن ابنتي أصابت حدًا فعمدت إلى الشفرة فذبحت نفسها فأدركتها، وقد قطعت بعض أوداجها فداويتها فبرأت، ثم إنها تنسكت وأقبلت على القرآن، وقد جاء من يخطبها.

أفأخبره بما كان من شأنها؟

فقال له عمر: أتعمد إلى ستر ستره الله فتكشفه؟ لئن بلغني أنك ذكرت شيئًا من أمرها لأجعلنك نكالًا لأهل الأمصار، بل أنكحها نكاح العفيفة المسلمة.

هل تُحدثك نفسك بشيء ويدور في خلدك ما ذنب هذا الخاطب في أن يرتبط بمن يظنها بكرًا ويُحسن بها الظن، وقد أسلمت نفسها من قبل للغواية؟

أتظن أنك أغير على الدين من عمر -رضي الله عنه-؟

فقد تنسكت الفتاة وتابت، والتوبة تجبّ ما قبلها، وإني لأرجو أن يكون الله -عز وجل- قد سدد عمر في اجتهاده.

قابل النبي -صلى الله عليه وسلم- هزالًا بعدما رجموا ماعزًا، وقال: يا هزال، لو سترته بثوبك، لكان خيرًا له مما صنعته به.

فينبغي على المسلم أن يتدارك إخوانه الذين زلت أقدامهم في وحل الذنوب بالستر والنصيحة، وألا يكشف زللهم للناس حتى لا يتجرأ غيرهم على المعاصي.

يقول دخين كاتب عقبة بن عامر: كان لنا جيران يشربون الخمر، وقد نهيتهم فلم ينتهوا، فقلت لعقبة: أنا داع لهم الشرطة فقال عقبة: لا تفعل ولكن عظهم وهددهم، فوعظهم ولم ينزجروا، فجاء دخين، وقال: إني قد نهيتهم فلم ينتهوا، وإني داع لهم الشرطة فتأخذهم، فقال عقبة: ويحك لا تفعل فقد سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول:

"من ستر عورة مؤمن فكأنما استحيا موءودة في قبرها".

ربما يكون بينك وبين جارك شيء من الشر، ثم ينكشف لك شيء من فحشه فتحدثك نفسك بأن تنتقم منه وتفضحه وتكشف عواره للناس، ولكنك تأبى حسبة لله فتأتيك المكافأة.

قال العلاء بن بدر:

إن الله -عز وجل- لا يعذب قومًا يسترون الذنوب.

هتك ستره بيديه

يقول النبي -صلى الله عليه وسلم-:

"كل أمتي معافى إلا المجاهرون، وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملًا، ثم يصبح وقد ستره الله عليه، فيقول: يا فلان عملت البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره ربه ويصبح يكشف ستر الله عنه".

فالمجاهر بالمعصية استحق العقوبة؛ لأنه استخف بحق الله وبحق المجتمع في العيش في ظل الفضيلة، فمن عصى ولم يجاهر يُرجى له العفو، وكثيرًا ما نرى شابًا يتباهى على أقرانه بذنوب خلواته ويهتك ستره بيديه، فلو سكت لكان خيرًا له ولغيره، حتى لا يتجرأ أحد على معصية الخالق.

كانت الإذاعة المصرية في التسعينات تقدم برنامج اعترافات ليلية كان المتصل يكشف ستره ويبث شكواه أو خيانته أو مجونه، وكان البرنامج يتناول مشاكل الشباب والمراهقين العاطفية والاجتماعية حتى تم منع البرنامج في أكتوبر 1998.

ومن هتك الأستار أن تضع المرأة ثوبها في غير بيت زوجها في صالة الجيم أو في محلات الأزياء، وربما يحدث ما لا يُحمد عقباه وتكون العاقبة وخيمة في زمن انحرفت فيه الضمائر وعم الفساد.

إنَّ نساء من الشام دخلن على عائشة -رضي الله عنها- فقالت: أنتن اللاتي تدخلن الحمامات، فقد سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ما من امرأة تخلع ثيابها في غير بيتها إلا هتكت الستر بينها وبين ربها.

وفي الحديث تحذير شديد للنساء من هذا الأمر حتى لا يقطعن ما بينهن وبين الله من الستر، والتي تبتغي رضا الله تتورع عن هذا.

خاصية تتبع:

لعلك تمتلك هذه الخاصية على هاتفك، فتشعر بالأمان سيتم رصد جهازك في حالة فقده، أو يتيسر لك مراقبة خطى أولادك على سبيل الاهتمام والحماية، ولعلك تقول في نفسك ما داعي الحديث عن هذه الخاصية في سياق الحديث عن الستر، لعلك تصل لإجابة عندما تسمع هذا النداء.

صعد النبي -صلى الله عليه وسلم- المنبر، ونادى:

"يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه، لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من تتبع عورة أخيه تتبع الله عورته، ومن تتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف بيته".

فمن راقب الناس وتتبع زلاتهم وهفواتهم ليفضحهم بها سيسلط الله عليه من يتتبع عورته، ويشيع مساوئه على الملأ، فالجزاء عند الله من جنس العمل.

روي عن بعض السلف أنه قال:

أدركت أقوامًا لم يكن لهم عيوب فذكروا عيوب الناس فذكر الناس لهم عيوبًا، وأدركت أقوامًا لهم عيوب فكفوا عن عيوب الناس، فنُسيت عيوبهم.

قال سفيان بن عيينه: لولا ستر الله -عز وجل- ما جالسنا أحد.

فلك أن تعلم أن الإنسان ابن الخطيئة، والعصمة ليست إلا للأنبياء، فلو كانت بقاع الأرض حلالًا، وما حُرم علينا إلا موضع خف لوقعنا فيه، فكل ابن آدم خطاء، فاحمد الله الذي عافاك من خطايا غيرك، ودع أمر العباد لربهم، فلم يبعثك الله رقيبًا عليهم فخلِّ بينهم وبين خالقهم.

كان شرحبيل بن السمط على رأس جيش فقال لجنوده: إنكم نزلتم أرضًا كثيرة النساء والشراب -أي الخمر- فمن أصاب منكم حدًا، فليأتنا نطهره فأتاه بعض جنوده، فبلغ ذلك عمر بن الخطاب، فكتب إليه أتأمر الناس أن يهتكوا ستر الله الذي سترهم به.

خبرني بربك ما الذي يجنيه هاتك الأستار من كشف سَوْءَات كان يجب أن تُصان وكسر هامات طالما رُفعت بعز الطاعة، فهل ينتظر من الدولة تكريم أنه فضح هذا أو شهر بتلك، بل عليه من الوزر ما الله به عليم بعدما هيأ لحوم إخوانه لتلوكها ألسنة اللئام، بل ليته يعي أن الأيام دوارة، ولا أحد يثبت على شيء، فكم من متورع زلت قدمه، وكم

من عاص تنسك، فلو اغتر بحاله فليعلم أن الدنيا لا تثبت على حال، فلو صدرت منه هفوة، فلن يجد من يظله بستره، فكل ساق سيُسقى بما سقى.

قال -صلى الله عليه وسلم-: "أقيلوا ذوي الهيئات عثراتهم إلا الحدود".

أهل الفضل ومن يندر منهم الشر نتجاوز ونستر هفواتهم حتى يبقى ماء وجوههم، فلا تسقط هيبتهم ويبقى فضلهم.

قيل لرجل من التابعين اسمه أبو تميمة:

كيف أصبحت؟ قال: أصبحت بين نعمتين لا أدري أيتهما أفضل، ذنوب سترها الله علي لا يستطع أحد أن يُعيرني بها، ومحبة في قلوب الخلق لا يبلغها عملي.

قد يستر الله على عبد ذنبًا بينما يفضح غيره على نفس الذنب. موظف أخذ من عهدته مالًا لظروف طارئة، فستره الله ومر الأمر بسلام، والآخر صنع الشيء نفسه فأحالوه للتحقيق، ولا عجب في ذلك، فقد جاء في الحديث: "من ستر مسلمًا ستره الله في الدنيا والآخرة" فطالما أنك لا تفضح الناس بزلاتهم سيُرخي الله عليك ستره لو زلت قدمك مثلهم.

بل دعني أنقل لك هذا المشهد الجليل من عرصات يوم القيامة...

الله -تعالى- يُدني العبد المؤمن منه يوم القيامة ويقربه إليه ليعرض عليه ذنوبه فيضع عليه كنفه -أي ستره- حتى لا يفتضح أمره أمام

الناس، ويقول له: أتعرف ذنب كذا؟ يسأله عن ذنوب تلطخ بها في دنياه فيعترف ويُقر، ويظن في نفسه أنه هالك فيتداركه عفو الله وتأتيه النجاة، ويقول الرحمن: سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم.

في بني إسرائيل من كان يرتكب ذنبًا في ستر الليل يُصبح ويجد مكتوبًا على بابه الذنب الذي ارتكبه والكفارة المطلوبة.

فالحمد لله الذي رآنا على الذنب فسترنا، وأسأله ألا يكشف ستره عنا يوم أن نلقاه.

الخشية

توفى عمر بن عبد العزيز، وكان له منزلة في قلوب الناس فأتى رجل إلى بيته، وسأل زوجته فاطمة عن عمله.

فقالت: والله ما كان بأكثر الناس صلاة ولا بأكثرهم صيامًا، ولكن ما رأيت أحدًا أخوف لله من عمر، فقد كان يذكر الله في فراشه فينتفض انتفاض العصفور من شدة الخوف حتى نقول: ليُصبحن الناس ولا خليفة لهم.

قال الحسن البصري:

إن المؤمن يُصبح حزينًا ويمسي حزينًا، ولا يسعه غير ذلك، لأنه بين مخافتين ذنب قد مضى لا يدري ما الله صانع فيه، وبين أجل قد بقي لا يدري ما يصيبه فيه من المهالك.

جزع محمد بن المنكدر عند موته، فقيل له: لمَ تجزع؟ فقال: أخشى آيه من كتاب الله "وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون".

فأخشى أن يبدو لي من الله ما لم أكن أحتسب.

لما احتضر سفيان الثوري جعل يبكي، فقيل له: يا أبا عبد الله عليك بالرجاء، فإن عفو الله أعظم من ذنوبك.

فقال: أَوَعَلَى ذنوبي أبكي؟ لو علمت أني أموت على التوحيد لم أبال بأن ألقى الله بأمثال الجبال من الخطايا.

بكى الحسن ذات مرة فقيل له: ما يُبكيك؟

قال: أخشى أن يطرحني غدًا في النار ولا يبالي.

ولما عوتب في كثرة بكائه قال: بلغني أن الباكي من خشية الله لا تقطر دموعه قطرة حتى تعتق رقبته من النار.

كان وسيم البلخي يقول:

أوه للقبر وظلمته، وللحد وضيقه، كيف أصنع؟!

لم يكن الخوف مجرد كلمات تلوكها الألسنة، بل كان واقعًا عمليًا.

فكان يحيى بن سعيد يقول في مجلسه: "اللهم سلم، سلم".

رأى الفضيل بن عياض ابنه يمسح كفة الميزان بطرف ثوبه، فسأله: لمَ تفعل ذلك؟ فقال: حتى لا أبيع غبار الطريق للمسلمين.

قال ابن المبارك: استعرت قلمًا بأرض الشام، فذهبت على أن أرده، فلما قدمت مرو نظرت، فإذا هو معي، فرجعت إلى الشام حتى أرده على صاحبه.

قال الحسن رأيت في منزل ابن المبارك حمامًا طيارة. فقال لي ابن المبارك: كنا ننتفع بفراخ الحمام من قبل، أما اليوم فلا.

فقلت: ولم ذلك؟ قال: اختلطت بها حمام غيرها فتزواجت بها فنحن نكره أن ننتفع بشيء من فراخها من أجل ذلك.

كان لأبي الدرداء -رضي الله عنه- جمل يُقال له: دمون. فلما حضرته الوفاة قال: يا دمون لا تخاصمني عند ربي، فإني لم أكن أحمل عليك إلا ما تطيق.

قال يوسف بن أسباط:

كان سفيان الثوري إذا أخذ في ذكر الآخرة يبول الدم من خشيته لله -عز وجل-.

تنفس الحسن في المسجد تنفسًا شديدًا ثم بكى حتى ارتعدت مِنْكَبَاهُ، ثم قال:

لو أن بالقلوب حياة لو أن بالقلوب صلاحًا لبكيتم من ليلة صبيحتها يوم القيامة.

إلهي لستُ للفردوس أهلًا ولا أقوى على نـار الجحيم

فهب لي توبة واغفر ذنوبي فإنك غافر الذنب العظيم

قال عمر بن عبد العزيز في خطبته:

أيها الناس، إنكم لم تُخلقوا عبثًا ولم تتركوا سُدى، وإن لكم معادًا يحكم الله فيه بينكم، فخاب وخسر من خرج من رحمة الله التي وسعت كل شيء، وحُرم الجنة التي عرضها السموات والأرض، واعلموا أن الأمان غدًا لمن خاف الله اليوم وباع قليلًا بكثير وفائتًا بباق".

فكان -رحمه الله- يجمع العلماء كل ليلة ويذكرون الموت وأهوال القيامة، ويبكون كأن بين أيديهم جنازة.

روى النبي عن ربه -جل وعلا- أنه قال:

"وعزتي لا أجمع على عبدي خوفين ولا أجمع له أمنين، إذا أمنني في الدنيا أخفته يوم القيامة، وإذا خافني في الدنيا أمنته يوم القيامة".

قال أحد السلف: المؤمن جمع إيمانًا وخشية مع عمله، والمنافق جمع إساءة وأمنًا مع تفريطه.

فالخوف باعث على العمل، فكان ابن الخطاب يقول: إذا نمت بالنهار ضيعت الرعية، وإذا نمت بالليل ضيعت نفسي.

قال الحسن: نضحك ولا ندري لعل الله قد اطلع على بعض أعمالنا، فقال: لا أقبل منكم شيئًا.

عابد من بنى إسرائيل عبد الله عشرين سنة ثم انتكس وزلت قدمه في حفر الذنوب، فعصى الله عشرين سنة، فنظر يومًا في المرآة فوجد الشيب يزحف في رأسه، فقال: يا رب أطعتك عشرين وعصيتك عشرين، فإن عدت إليك تقبلني؟

فلما نام من ليلته سمع هاتفًا يناديه أحببتنا فأحببناك، وعصيتنا فأمهلناك، وتركتنا فتركناك، وإن عدت إلينا قبلناك.

قيل لعمر بن عبد العزيز: ما كان سبب إنابتك إلى الله؟

قال: أردت أن أضرب غلامًا لي.

فقال لي: اذكر ليلة صبيحتها يوم القيامة.

سمع الفاروق -رضي الله عنه- تاليًا يقرأ:

"إن عذاب ربك لواقع"

فبكى واشتد بكاؤه حتى مرض وعاده الناس.

قال الحسن البصري لأحد ولاة يزيد بن عبد الملك بن مراون:

خف الله في يزيد ولا تخف يزيد في الله، فإن الله يمنعك من يزيد، وإن يزيد لا يمنعك من الله، ويوشك أن يبعث إليك ملكًا يزيلك عن عرشك، ويُخرجك من سعة قصرك إلى ضيق قبرك، ثم لا ينجيك إلا عملك.

قال مطر الوراق: كأن الحسن كان في الآخرة فجاء يتكلم عنها وعن أهوالها.

قال ابن القيم -رحمه الله-:

الوجل والخوف والخشية والرهبة ألفاظ متقاربة غير مترادفة.

قال -صلى الله عليه وسلم-:

"لا يلج النار رجل بكى من خشية الله حتى يعود اللبن في الضرع".

قال الحسن البصري: ابك في ساعات خلوتك، لعل مولاك يرحم عبرتك، وتكون من الفائزين.

مر رجل من الصالحين على رجل من الأثرياء، وهو يشوي شاة على النار، وظل ينظر للشاة، ويبكي فسأله صاحب الشاة لمَ تبكي، هل تريد شيئًا من اللحم أعطيك إياه؟ فقال: أنا أبكي على ابن آدم، فتعجب صاحب الشاة وسأله: وما علاقة ابن آدم بتلك الشاة التي تُشوى على النار؟ فقال: تلك الشاة دخلت النار وهي ميتة وابن آدم يدخل النار وهو حي.

قال ابن عمر:

لأن أدمع دمعة من خشية الله أحب إليّ من أن أتصدق بألف دينار.

رمدت عين رجل من السلف فقال له الطبيب: أعالجك بشرط ألا تبكي قال: لا خير في عين لا تبكي، فقال الطبيب: تصاب بالعمي، فقال العمى لها شهادة.

قال ابن رجب -رحمه الله-:

ليس الخائف من يبكي ويمسح عينيه، بل من يترك الحرام إذا قدر عليه.

قالت فاطمة بنت عبد الملك بن مروان: اشتهى عمر بن عبد العزيز عسلًا، ولم يكن عندنا فوجهنا رجلًا على دابة من دواب البريد إلى بعلبك، فاشترى لنا، وأخبرت عمر فشرب منه، ثم سأل: من أين لكم هذا العسل؟ فقلت وجهنا رجلًا على دابة من دواب البريد بدينارين إلى بعلبك، فاشترى لنا.

فأرسل عمر إلى الرجل فجاءه فقال: انطلق بهذا العسل إلى السوق فبعه، واردد لنا رأسمالنا، وانظر الفضل فاجعله في علف دواب البريد، ولو كان ينفع المسلمين قيء لتقيأت.

رتعت أيديهم على أموال الناس وما تحرك فيهم ساكن، وقد أخرج أبو بكر لقمة من فمه أتى بها غلامه من كهانة، ولم يكن يعلم، فأجهد نفسه كي يُخرجها، وقال: والله لو لم تخرج إلا وروحي لأخرجتها وروحي، فقيل له: ترفق بنفسك لم تكن تعلم. فقال: أخشى أن تُنبت في جسدي، وقد سمعت النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: "أي لحم نبت من سحت فالنار أولى به".

املأ بها صدرك: الخوف المحمود ما يكون باعثًا لك على فعل الطاعات مانعًا لك من فعل المحرمات، فقد كان عمر يضع يده على النار، ويقول: ألك صبر على هذا يا ابن الخطاب؟ وليس المراد بالبكاء الصراخ والصياح ورفع الصوت، ولكن زجر الجوارح حتى تكف عن المحارم، فيقمع العبد شهوته، ويخشع قلبه.

سعيد بن جبير قبل موته بسنة لم يره أحد يضحك أو يبتسم أبدًا.

فسئل عن ذلك، فقال: كيف أضحك والنار قد سعرت، والسلاسل والأغلال قد أعدت، والصراط قد مد على جهنم، ولا أدري أناجٍ أنا أم لا.

أنسيت لقاء الله واللحد والثرى ويومًا عبوسًا تشيب فيه النواصيا

فلا تكن شاة الراعي أعقل منك تزجرها الصيحة وتطردها الإشارة.

وقد قال حاتم الأصم: عرضت على نفسي عرضين:

الجنة وما فيها من نعيم، والنار وما فيها من عذاب.

فقالت: أريد أن أتوب إلى الله.

عبد الملك بن مروان سأل منصور بن عمار:

من أعقل الناس؟ ومن أجهل الناس؟

فقال: أعقل الناس محسن خائف.

وأجهل الناس مسيء آمن.

ثمرات الخشية:

قيل لأحد العباد: أتعبت نفسك. فقال: راحتها أريد.

فهو يرجو الكرامة يوم الحسرة والندامة، فتجده يجتهد في الطاعة مع ترك المحارم.

قال -تعالى-: "ولمن خاف مقام ربه جنتان".

قال -تعالى-: "ومن يتق الله يجعل له مخرجًا ويرزقه من حيث لا يحتسب".

قال ابن القيم: من عظّم وقار الله في قلبه أن يعصيه وقّره الله في قلوب الخلق أن يذلوه.

يقول الله -عز وجل-: "وعزتي وجلالي ما من عبد آثر هواي على هواه إلا أقللت همومه وجمعت له ضيعته، ونزعت الفقر من قلبه، وجعلت الغنى بين عينيه، واستجرت له من وراء كل فاجر".

المؤمن كطائر له جناحان الخوف والرجاء، فيخلط حياته بمزيج منهما مع تغليب جانب الخوف، فإذا نزلت به السكرات هبط هبوطًا اضطراريًا على جناح الرجاء "لا يموتن أحدكم إلا وهو يُحسن الظن بالله".

قال -تعالى-: "إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير".

إلهي إن كنت لا تعفو إلا عن أهل طاعتك، فلمن يفزع المذنبون؟

وإن كنت لا ترحم إلا أهل تقواك، فبمن يستغيث المسيئون؟

إلهي ذنوبي في الورى كثرت وليس لي عمل في الحشر ينجيني

وقد جئتك بالتوحيد يصحبه حب النبي وهذا القدر يكفيني.

فتنة النساء والخمر والمال

قال علي بن أبي طالب:

بُنيت الفتنة على ثلاث:

النساء، وهن فخ إبليس المنصوب.

والخمر سيفه المرهف.

والدرهم والدينار، وهما سهماه المسمومان.

فتنة النساء:

سعيد بن المسيب صلى الفجر طيلة خمسين سنة بوضوء العشاء، وكان يقول وقد تجاوز الثمانين من عمره: "ما شيء أخوف عليّ من النساء".

قال -صلى الله عليه وسلم-:

"ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء".

المرأة أخت وأم وزوجة وابنة وذات قرابة، وقد أوصانا بها النبي خيرًا، وقد أخبرنا -صلى الله عليه وسلم- "الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة" ومن يتأمل سير السلف الصالح يجد أن الكثير من العلماء ربتهم أمهاتهم.

وتأمل حال الإمام البخاري فقد بصره وهو طفل صغير، وعجز الأطباء عن علاجه، ولو عاش هكذا ربما ما انتفعنا بعلمه ولا سمع به أحد، ولكن أمه لم تعجز عن الدعاء، فتوسلت إلى الله كثيرًا، وكانت امرأة عابدة صالحة، فرأت في المنام الخليل إبراهيم -عليه السلام- فقال لها:

"قد ردّ الله على ابنك بصره بكثرة دعائك".

قد يتوهم البعض من أحاديث فتنة النساء بأن المرأة خطر مميت أو لغم قابل للانفجار، إنما حقيقة الأمر أن الشارع أراد أن تكون علاقة المرأة بالرجل منضبطة بالدين.

وقد حذرنا رسولنا الكريم: "إياكم والدخول على النساء" قال رجل من الأنصار: أرأيت الحمو؟ قال: الحمو الموت".

فبدعوى التحضر والثقة وقعت الفتنة وانتهكت الأعراض نتيجة التساهل في هذا الأمر حتى اشتكت إحداهن بعين باكية، وقالت:

يأتي والد زوجي إلى بيتنا وفي غالب الأحيان يكون زوجي حاضرًا، فيتلطف معنا في حديثه ومداعباته، وأحيانًا يستأذن ليدخل دورة المياه، وقد لاحظت أمرًا غريبًا عقب انصرافه لا أجد ملابسي الداخلية التي كانت معلقة أو خصلات شعري على الفرشاة، وأنا أخشى عواقب الأمور.

ما معنى الحمو؟ هو قريب الزوج يدخل البيت بدعوى القرابة، وجاء وصفه بالموت لأن في دخوله الهلاك ووقوع الفاحشة التي يُرجم فاعلها.

تفضل بالعودة معي إلى شكاية المرأة، يأتي والد زوجها إلى البيت فتجلس معه غير متحفظة في ثيابها وتبسمها ومرحها فنظر لها والد زوجها بعين الشهوة، وتمناها لنفسه، وتأججت فيه رغبته فذهب إلى كاهن ليصنع له تميمة تجعلها تتعلق به وتجيبه إلى رغبته، ويكون ما بينهما مواقعة بالرضا فطلب منه الكاهن شيئًا يخصها كملابس أو خصلات شعر ليعقد عليها سحره، والآن تخشى من عاقبة الأمور بعدما فطنت لمراده الخبيث، وقد شرعت له الباب أولًا وتساهلت فى وجوده، ولم تظن بأن الطعنة ستأتيها ممن تُناديه أبي، وقد أودى الرجل بدينه

من قبل حين ذهب للساحر، وقد روي: "من ذهب إلى عرّاف فسأله وصدقه، فقد كفر بما أنزل على محمد".

قرأت في بعض المصادر أن الأميرة ديانا كانت على علاقة بمدرب الخيول والحارس الشخصي والسائق، ثلاثة يعملون في خدمتها وهي أميرة، ولكنها سقطت معهم في خلوتها.

طالعتنا الصحف في الأيام القليلة الماضية بأن محكمة جنايات فُوّه بمحافظة كفر الشيخ أصدرت حكمًا بإعدام زوجة قتلت زوجها بعد علاقة آثمة مع شقيقه. المرأة تنصلت من معان الشرف والآخر طوعت له نفسه قتل أخيه فكان القصاص منه أيضًا.

دخل الشيطان بينهما من هذا الباب وتساهل المجتمع في نظرته للحمو، وألبسوا الأمر ثوب الدين وقالوا صلة رحم وتزاور، وما هكذا تورد الإبل.

جريمة هزت المرج بالقاهرة، زوجة تقتل زوجها بمساعدة عمها كيف بدأت خيوط الجريمة؟ لم تبدأ بكلمة نابية أو وشاية كاذبة، بل بدأت الجريمة بصلة رحم، ذهب العم ليزور ابنة شقيقه فاستقبلته، وكان زوجها في العمل، وقبل أن أسرد لك بقية الوقائع دعني أذكرك بما قاله عمر بن عبد العزيز: "لا تخلونَّ بامرأة ولو كنت تحفظها القرآن" أنا لا أعلم من أشعل النار في البداية، فطيلة ستة أشهر بينها وبين عمها كما بين الزوج وزوجته، وفي إحدى الأيام عاد الزوج المخدوع إلى بيته مبكرًا،

ولم يخبر زوجته فتح باب الغرفة فصعق بهول ما رأى، فأسرع إلى المطبخ ليأتي بسكين، فأفرغ العم الرصاص في رأسه.

وارتدى ملابسه سريعًا وطلب منها أن تصرخ وتستدعي الجيران، وتقول قتل اللصوص زوجي ذهبت إلى قسم شرطة المرج وقدمت بلاغًا، فبدأ التحقيق والتحري، وتم تفريغ الكاميرات فتأكد كذب الزوجة، وتم القبض على عمها بعدما رصدته الكاميرات يخرج مسرعًا من العقار وبعد التحريات والمواجهة اعترفا بالجريمة.

وأي هلاك بعد هذا، وأي موت أشد مما رويت، وما كان ذلك إلا بعدما تخلينا عن تعاليم الدين والشرع الحنيف "ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير" لو سلم الزائر من على الباب ومضى، بعدما علم أن البيت يخلو من سيده لكان خيرًا له، ولو كان قد أتى من آخر الدنيا يرجع اتقاء الفتنة.

فقد قال سفيان الثوري: "ائتمني على بيت مملوء مالًا ولا تأتمني على جارية سوداء لا تحل لي".

قال أنس -رضي الله عنه-:

إذا مرت بك امرأة فغمّض عينيك حتى تجاوزك.

كل الحوادث مبدأها من النظر، ومعظم النار من مستصغر الشرر.

أحد الدعاة كان ضيفًا على قناة الناس الفضائية فتحدث بأسى عن امرأة لعوب بالحي الذي يسكنه، وقد غوت الكثير من الشباب حتى تلطخ

بحقارتها الكثير، فكانت مرحاضًا لنفايات غرائزهم، فأراد أحد مشايخ الحي أن يتصدى لمجونها ذكرها بالله غير مرة لتكف أذاها عن الناس ودعاها لتسلك سبيل الفضيلة، وكان يخلو إليها واستبشر الناس بصنيعه، فلعلها تنتهي عن فجورها، وتتابعت زيارته لها حتى كاد يقع في فخها وتلحق به أذاها لولا أن أدركناه.

قال -صلى الله عليه وسلم-: "إن المرأة تُقبل في صورة شيطان".

وقد جاء التشبيه بالشيطان في صفة الوسوسة والإضلال والغواية.

"ألا في الفتنة سقطوا"

وقد ذكر ابن حزم الأندلسي في كتابه طوق الحمامة قصة امرأة باحت بجُرمها قائلة: ركبت بحر القلزم عائدة من الحج، وأنا خامسة نسوة كلهن قد حججن، وكان في بعض ملاحي السفينة رجل مديد القامة واسع الأكتاف فرأيته أول ليلة قد أتى إلى إحدى صواحبي فأمكنته من نفسها، ثم مر عليهن كلهن في ليالي متواليات، ولم يبق له غيري فقلت في نفسي لأنتقمن منه فجاء إلى غرفتي فضربته بحديدة على رأسه، فارتاع وسقط، وقام لينهض فأمسكته، وقلت حتى آخذ نصيبي منك.

قال ابن القيم: العشق مرض من أمراض القلب فإذا تمكن واستحكم عز على الأطباء دواؤه، وأَعْيَا العليل داؤه، ولا يُبتلى بعشق الصور إلا القلوب الفارغة من محبة الله المعرضة عنه.

في القرن المنصرم ارتقى مؤذن منارة المسجد ليؤذن لصلاة العصر، فاطلع في البيت المجاور فرأى فتاة جميلة فنزل، ولم يؤذن ودخل عليها الدار، فقالت: ما شأنك؟ قال: أريدك. قالت: أنا لا أجيبك إلى ريبة. قال: أتزوجك. قالت: أنت مسلم وأنا نصرانية، وأبي لا يزوجني منك. قال: أتنصر. قالت: إن فعلت أفعل. فتنصر ليتزوجها وأقام معهم في الدار، وعند المغرب طلبوا منه أن يرتقي السطح ليأتي لهم بحاجة فسقط مغشيًا عليه، فلا بقي على دينه ولا بها ظفر.

هل وجدت في نفسك شيئًا وخشيت الفتنة وسوء الخاتمة، فربما كان يُعاني هذا الأخير من دسيسة باطنة كالحسد والكبر، أما من حقق الإخلاص وخالطت قلبه بشاشة الإيمان، فالله -تعالى- أعدل وأرحم من أن يخذلة عند موته.

قد يقول قائل: الناس غرقى في الهوى لم ينج غِرٌّ أو إمام، فقد عمّت الفتن واستشاط البلاء، واحترق الجميع بشرر الغواية.

ولكني سمعت من قصص الثبات الكثير، وقرأت الكثير، ولكني توقفت عند قصة أبي بكر المسكي التي ذكرها ابن الجوزي في كتاب "المواعظ والمجالس".

كان بطل القصة شابًا وسيمًا قال له أصحابه: إنا نشم منك رائحة المسك على الدوام، فما سببه؟

فقال: منذ سنوات لم أضع مسكًا ولا طيبًا، ولي في ذلك قصة، فقد كنت أتجول ببضاعتي، فاحتالت عليّ امرأة وقالت: معك البضاعة الفلانية؟ قلت: نعم. فقالت: تعالَ أشتري منك، فدخلت الدار فأسرعت إلى الباب وأغلقته، وقالت: إما أن تقع عليّ أو أصرخ فتأتي الشرطة فتقتادك، ويزج بك إلى السجن، فتحيرت في أمري، وضاقت بي الحيل، فقلت: دعيني أدخل الخلاء، فأخذت القذارة ولطخت بها نفسي وخرجت، فتقززت مني المرأة وطردتني من بيتها، وقالت: اخرج يا مجنون، ومضيت إلى بيتي فاغتسلت ونمت، فسمعت قائلًا يقول لي: فعلت ما لم يفعله أحد غيرك لأطيبن ريحك في الدنيا والآخرة، فأصبحت والمسك يفوح مني.

ما كان الرجل نبيًا معصومًا ليمتنع عن مواقعتها، ولا مسلوب الرجولة ليعجز عن وطئها، ولكنه كان يخشى الله ويطمع فيما عنده من النعيم، فلم يرَ برهان ربه، ولكنه أبى وصرخ بها في نفسه: إني أخاف الله، أعيته الحيل حتى لطخ جسده راضيًا مترفعًا عن أذاها الذي عافاه الله منه، فنجا من تنُّورها وأتته المكافأة، وفاح المسك.

إجراءات وقائية:

الصيام وقاية من هياج الشهوة:

"يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وجاء".

تجنب الخلوة بالمرأة:

"لا يخلونَّ رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما"

دفع الخواطر السيئة والأفكار الشهوانية، وتذكر عذاب الزناة ونعيم المتقين.

صدق اللجوء إلى الله، فهو يجيب من دعاه.

سُئل النبي عن نظر الفجأة، فقال: "اصرف بصرك".

"قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون".

فما من نظرة إلا وللشيطان فيها مطمع، فلا تستبعد المسافة بين زنا العين وزنا الفرج، فالمسافة قد تطول أو تقصر، والشيطان لا يمل وله سياسة بارعة في وضع أهداف صغيرة توصله لغايته، كما فعل مع برصيص العابد، فكم من نظرة فتنت عابدًا وجرته بأهدابها إلى الحرام، وبدلت حاله من العفة إلى الآثام.

قال ابن القيم:

العين مرآة القلب، فإذا غض العبد بصره غض القلب شهوته، وإذا أطلق العبد بصره أطلق القلب شهوته.

قالت أستاذة جامعية تُدرس الجنس في إحدى جامعات أوروبا، وجدت علاج الزنا في الكتاب المُنزل على محمد في قوله:

"قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم".

قدم الله -عز وجل- غض البصر على حفظ الفرج، حيث النظر بريد الزنا، وقد انتشرت في هذه الآونة الصور الفاتنة في الإعلام والهواتف والمجلات والمنتجات التجارية، فنسأل الله السلامة.

وقد قال -صلى الله عليه وسلم-:

"لا تتبع النظرة النظرة، فإن لك الأولى وليست لك الثانية".

لذة الحرمان أكبر

لذة غض البصر أكبر من إطلاقه...

روى الحاكم في مستدركه وصححه:

"إن النظرة سهم من سهام إبليس مسموم، من تركها من مخافتي أبدلته إيمانًا يجد حلاوته في قلبه".

قال أبو الدرداء -رضي الله عنه-:

من غض بصره عن النظر الحرام زوّج من الحور العين.

قال -صلى الله عليه وسلم-:

"... فاتقوا الدنيا واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء".

فلا تستديم النظر إليها.

تحفظ في كلامك ولا تمزح.

ولا ترفع التكليف بينكما في الخطاب.

واحذر كل الحذر من المواقع والصور.

لم يبق في جعبتي إلا سؤال لدعاة التبرج:

هل في كشف المفاتن من حضارة بها نفاخر؟ أبدًا لم يكن التعري مدعاة للفخر، فالفاكهة التي تنزع عنها قشرتها، وتتعرى تتعرض للعفن.

هل في التبرج من ربح يغتنمه المجتمع؟

فالتبرج وإيثار الغرائز وتلك النيران المستعرة يتلظى بها الجميع، وقد قال ابن خلدون في مقدمة كتابه: الجنس العربي لو تلبّس بالشهوات فقد يومه وغده، وقد رأينا الجيل الذي تربى على أفلام السندريلا عصفت به رياح النكسة.

وتبقى همسة:

أختاه لك في سترك رونق، فلا تتخلي عن حشمتك وتَجُرِّي الويلات على نفسك، من أجل أن تُشبعي رغبة أو تحظين بنظرة، ولعلك تُدركين بأنك صرت دمية أغلظوا لها الحبل، فما عدت تملكين خلاصًا من أيديهم، بدءًا من صاحب العمل الذي أرادك حسنة المظهر، مرورًا بنفس ترغب في الشهرة وحب الظهور، انتهاء بصفوة زائفة أبدوا تعاطفهم وقالوا معك حتى تتحرري، وما أرادوا حريتك إنما حرية الوصول إليك.

ذئاب جائعة من حولك إلا من كان له حظ من وازع يحفظه، فانتبهي إني لك من الناصحين.

فتنة الخمر:

الخمر السيف المرهف...

روى ابن ماجه في سننه أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال:

"ليشربن ناس من أمتي الخمر، يسمونها بغير اسمها، يُعزف على رؤوسهم بالمعازف، يخسف الله بهم الأرض، ويجعل منهم القردة والخنازير"

لو لم يأتِ في الخمر إلا هذا الحديث لكفى به زاجرًا، ولكن حتى لا تختلط علينا الأمور سنضع نقاطًا هامة:

- " كل مسكر خمر وكل خمر حرام".

- " ما أسكر كثيره فقليله حرام".

قال الحسن البصري: لو كان العقل يُشترى لتغالى الناس في ثمنه، فالعجب ممن يشتري بماله ما يفسد عقله.

فالخمر أم الخبائث ومفتاح الشرور، أوقعت شاربها على محارمه، وختمت حياته بالهلاك.

أذكر وأنا في المرحلة الثانوية اشتريت زجاجة مياه شعير، ولم أتحمل رشفة منها، فمججتها، وسكبت الزجاجة على أثرها، فمذاقها غير مقبول تمامًا، فما الذي حمل الناس على تناولها؟

الإجابة أوردها ابن الجوزي في كتابه صيد الخاطر:

النفس راغبة فيما مُنعت منه، ولو نُهي الناس عن تفتيت البعر لرغبوا فيه.

أخرج النسائي وابن حبان في صحيحه أن عثمان -رضي الله عنه- قام خطيبًا فقال: أيها الناس، اتقوا الخمر، فإنها أم الخبائث وإن رجلًا كان ممن كان قبلكم من العبّاد، وكان يختلف إلى المسجد فلقيته امرأة سوء، فأمرت جاريتها فقالت: ندعوك للشهادة، فأدخلته المنزل، وأغلقت الباب، وعندها باطية خمر وعندها صبي، فقالت له: لا تفارقني حتى تشرب كأسًا من الخمر أو تواقعني أو تقتل الصبي، إلا وصرخت وقلت: دخل عليّ في بيتي.

فضعف الرجل عن ذلك، وقال: أما الفاحشة فلا آتيها، وأما النفس فلا أقتلها، فشرب كأسًا من الخمر، فقال: زيديني فزادته، فوالله ما برح حتى واقع المرأة وقتل الصبي.

فقال عثمان -رضي الله عنه-: فاجتنبوها فإنها أم الخبائث، وإنه والله لا يجتمع الإيمان والخمر في قلب رجل إلا يوشك أحدهما أن يذهب بالآخر".

فتنة المال:

الدرهم والدينار سهمان مسمومان:

قال -صلى الله عليه وسلم-:

"ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، فتهلككم كما أهلكتهم".

لم يخشَ النبي علينا من الفقر، بل خاف علينا أن ننشغل بالمال ونفرط في جنب الله، وقد قال الله -عز وجل-: "ألهاكم التكاثر، حتى زرتم المقابر".

أي شغلتكم التجارة حتى صرتم موتى في القبور، يوهمك البعض بوعظه المزيف بأن المال مذموم، وخير لنا أن نفتقر فإذا كثر المال كثر الحساب، وأن الفقراء يدخلون الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام، ولا يخبرك بدعاء النبي: "اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر" وقد قال -صلى الله عليه وسلم- لأصحابه: "تعوذوا بالله من الفقر والقلة والذلة". وربما تشدق ذاك الواعظ وقال بملء فيه ليُسكن رغبة الناس في زهرة الحياة وطيب عيشها:

النفس تجزع أن تكون فقيرة والفقر خير من غنى يُطغيها
غنى النفوس هو الكفاف، فإن أبت فجميع ما في الأرض لا يكفيها.

ولا أجد على هؤلاء ردًا يُلجمهم إلا قول سفيان الثوري: "كان المال فيما مضى يُكره، أما اليوم فهو ترس المؤمن، ولأن أخلّف ورائي عشرة آلاف درهم يحاسبني الله -عز وجل- عليها أحب إليّ من أن أحتاج إلى الناس".

وقد قال القائل والصواب معه:

بالعلم والمال يبني الناس ملكهم لا يبنى ملك على جهل وإقلال

كيف نصنع الموازنة؟

في أحد البرامج الفضائية سمعت الرجل الفاضل محمود العربي صاحب شركة "توشيبا" يقول ما تعلمناه في الكُتاب، ونحن صغار أن تكون الدنيا في أيدينا لا في قلوبنا، وقد كان -رحمه الله- يعلم حق الله في ماله، فكان من أهل الجود والكرم والتواضع.

وسأقدم لك مثالًا آخر من عهد السابقين تعمدت ألا أبدأ به:

عبد الله بن الزبير كان له حلقة تجارية ممسكًا عليها بقبضة يده فيقول من يراه: هذا رجل لم يُرد الله طرفة عين، فإذا ذهب إلى الحرم ليصلي بالناس إمامًا فيقول من يراه: هذا رجل لم يُرد الدنيا طرفة عين، فإذا صلى النافلة أطال في سجوده فتحط طيور الحرم على ظهره تظنه جذع شجرة.

ربما تتعجب في نفسك حين أخبرك بأن ستة من العشرة المبشرين بالجنة كانوا تجارًا من علية القوم، لهم حظ وافر من الثراء، وقد قال -صلى الله عليه وسلم-: "نعم المال الصالح للرجل الصالح".

تعال نذهب بالكلام ناحية السهم المسموم، فالمال وسيلة، ولكنه أصبح عند غالب الخلق غاية، فارتكبوا الجرائم وتقاطعوا وتدابروا وفجروا في خصومتهم، بل تطاولت أيديهم ورتعت في الحرام وفتح الموظف درج مكتبه ليتلقى رشوة، وسماها بغير اسمها: "ليأتين على الناس زمان لا يبالي المرء مما أخذ ماله من حلال أم من حرام".

من هنا أصبح المال فتنة "إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم". قال يحيى بن معاذ: الدنيا خمر الشيطان من سكر منها لا يفيق إلا في معسكر الموتى، فمن سكر بالخمر لو صب الماء على رأسه لعاد إليه وعيه، أما من سكر بدنياه فلن يفيق إلا تحت التراب، فالعاقل من يتركها قبل أن تتركه، كما فعل عمر بن عبد العزيز، أتته الدنيا راغمة وبركت على عتبة داره فمضى وتركها، ربما ورث زهده من جده عمر بن الخطاب الذي قال يومًا لأصحابه: "والله لولا مخافة أن ينقص من حسناتي يوم القيامة لشاركتكم في لين عيشكم، ولكني سمعت الله عيّر أقوامًا فقال: "أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا" فما انتبه عمر لدنياه ولا اهتز لها قلبه.

وقد أخبرنا النبي -صلى الله عليه وسلم- بحقيقة الأمر: "إن لكل أمة فتنة وفتنة أمتي المال".

فإذا رأيت الرجل قد تغيرت طباعه بعدما بُسطت له الدنيا، فاعلم بأنه مفتون قد نسي أيام فقره وحرمانه، ولسان حاله: قد ورثت هذا المال كابرًا عن كابر.

إذا رأيت الرجل قد شغلته دنياه وتجارته وأمواله عن الصلاة فجمع الصلوات وأخرها عن وقتها، أو صلاها بغير خشوع أو تركها، فاعلم بأنه مفتون.

إذا رأيت الرجل يُعادي ويوالي من أجل المال والمصلحة التي تعود عليه ويقطع رحمًا ويهجر صديقًا محتكمًا بقانون المنفعة فاعلم بأنه مفتون.

إذا رأيت الرجل غالب حديثه عن أشهى المأكولات وأحدث السيارات وآخر الأزياء والصيحات، ويشتري كل أنيق من الأثاث والماركات، فاعلم أنه مفتون.

دخلت حفصة بنت عمر على أبيها فرأت ما هو فيه من شدة العيش، فقالت: إن الله أكثر من الخير وأوسع عليك من الرزق، فلو أكلت طعامًا أطيب من ذلك، ولبست ثيابًا ألين من ثوبك.

فقال عمر: سأخاصمك إلى نفسك، فذكر لها أمر رسول الله وما كان يلقى من شدة العيش حتى بكت.

قالت عائشة -رضي الله عنها-:

ما أكل آل محمد -صلى الله عليه وسلم- أكلتين في يوم إلا إحداهما تمر".

وكان يدخل على أهله بعد صلاة الصبح، ويقول: "هل عندكم من طعام؟" فيقولون: لا. فيقول: "إني إذًا صائم".

قال أبو الدرداء -رضي الله عنه-:

اللهم إني أعوذ بك من تفرقة القلب. قيل: وما تفرقة القلب؟

قال: أن يكون لي في كل واد مال.

السهم يخترق الحرس:

أتى واعظ إلى أحد الأمراء فوعظه موعظة بليغة، فأرسل إليه الأمير مالًا فقبله.

فقال الأمير: كلنا صياد، ولكن الشباك تختلف.

والزمان لا يخلو من أشباه هذا الواعظ، يأكلون على كل الموائد ويقتاتون بوعظهم، كالمطرب الذي ينتظر أجره آخر السهرة.

فكم من فتاوى تضخمت بها أرصدة، وكم من مراجعات كان ثمنها منتجعات، وكم من تملق ونفاق زجّ بهم على الفضائيات.

وفي شأنهم قال ابن حنبل -رحمه الله-:

عزيز عليّ أن تُذيب الدنيا أكباد رجال وعت صدورهم القرآن.

وقد قال سفيان الثوري: المال داء هذه الأمة، والعالم طبيب هذه الأمة، فإذا جر العالم الداء إلى نفسه فمتى يُبرئ الناس.

لص أتى متنكرًا بعمامة واعظ كلما انتفخت جيوبه راق منطقه، ولكن عندما يحدث الاستثناء يكون رائعًا، فائذن لي أن أسرد عليك ما حدث في الجامع الأموي بدمشق، كان الشيخ سعيد الحلبي يجلس مع تلاميذه يشرح لهم من تعاليم الدين، وقد استرخى الشيخ في جلسته ومدّ رجليه، وإذ بحاكم متجبر يدخل المسجد وحوله حرس مدجج بالسلاح،

يأمرون الناس بالقيام لتحية الأمير، فبقي الشيخ جالسًا مادًا رجليه فاغتاظ الأمير وأراد أن يبطش بالشيخ، ولكنه تمهل وعاد إلى قصره، وأخذ يفكر في حيلة لينتقم من الشيخ الذي أهانه، ثم استدعى كبير الحرس وأعطاه ألف ليرة ذهبية، وقال اذهب بها إلى الشيخ وأعطها له أمام تلاميذه، وما قصد بذلك إلا ليُحطم رمزه في أعينهم، أتى كبير الحرس إلى الشيخ، وقال بصوت عال: أرسل لك سيدي ألف ليرة لتنتفع بها، ربما كان الشيخ في بيته لا يملك ليرة واحدة، ولكنه في عزة وإباء قال: عد بالمال إلى سيدك وقل له إن الذي مد رجله لا يمد يده.

المال فتنة، فلا يكن غاية قصدك أن تجمع منه الكثير، وتغض الطرف عن مصدره، رأيت نفرًا غير قليل يحرص أحدهم على صلاة الجماعة، بل يصوم النوافل ويغض بصره اتقاء فتنة النساء، وأمام المال يضعف ويأخذه من حله وحرامه غير مكترث.

قال أحد السلف: الطاعات يفعلها البر والفاجر، ولا يترك الحرام إلا صِدّيق.

فالعبرة ليست بفعل الطاعة بل بترك المعصية، فأكبر موائد إفطار في رمضان تصنعها راقصة، حجيج في مكة بينهم اللصوص والمرتشون.

فالطاعات يقوى عليها الجميع، إنما العبرة بمن يدع الحرام خشية لله.

وقد قال وهيب بن الورد:

لو قمت قيام السارية ما نفعك حتى تنظر ما يدخل في بطنك حلال هو أم حرام.

قال سهل التستري: من أكل الحرام عصت جوارحه، شاء أم أبى، علم أو لم يعلم، ومن كانت طعمته حلال، أطاعته جوارحه ووفقت للخيرات.

الخلوة

قال ابن القيم:

إذا أردت أن تعرف مدى إيمانك، فراقب نفسك في الخلوات.

إن الإيمان لا يظهر في صلاة ركعتين أو صيام نهار، بل يظهر في مجاهدة النفس والهوى.

يحيى بن معاذ قال:

إذا أحب القلب الخلوة أوصله حب الخلوة إلى الأنس بالله، ومن آنس بالله استوحش من غيره.

كان الإمام الأوزاعي يُحيي الليل صلاة وذكرًا وتسبيحًا واستغفارًا، وفي أحد الأيام دخلت امرأة أجنبية بيته، ثم دخلت مصلاه فوجدت به موضع بلل، فنادت على زوجة الإمام، وقالت لها: إنك امرأة سوء.

فتعجبت زوجة الأوزاعي وقالت: لمَ؟

قالت: تركت الصبي يبول موضع صلاة الشيخ.

قالت: إنها دموع الشيخ بالليل.

الخلوة معناها أن تجلس منفردًا.

وشتان بين خلوة مع الله وخلوة تبارز فيها بالعصيان.

قال -صلى الله عليه وسلم-:

"لأعلمن أقوامًا من أمتي يأتون يوم القيامة بحسنات أمثال جبال تهامة بيضاء، فيجعلها الله -عز وجل- هباء منثورًا.

قال ثوبان: يا رسول الله صفهم لنا جلهم لنا ألا نكون منهم ونحن لا نعلم.

قال: أما إنهم إخوانكم ومن جلدتكم، ويأخذون من الليل كما تأخذون، ولكنهم أقوام كانوا إذا خلوا بمحارم الله انتهكوها".

يقول ابن عباس:

وخوفك من الريح إذا حركت ستر بابك وأنت على الذنب، ولا يضطرب فؤادك من نظر الله إليك أعظم من الذنب إذا عملته.

في الخلوة بعيد عن أعين الخلق، وباب الغرفة مغلق والأهل قد ناموا.....

هل تُشعل سيجارة ملفوفة...؟

هل تشاهد صورًا ومواقع إباحية...؟

هل تفترش جبهتك وتشكو بثك لله...؟

هل تقرأ وردك وتعيش في معية الله...؟

كلاهما كان مختليًا بعيدًا عن أعين الناس الذاكر والعاصي...

فما الذي حمل أحدهم على سكب عبراته وجعل الآخر يتردَّى في هفواته؟

إنه الإيمان الذي سكن في القلوب، وما ينشأ عنه من الخوف والمراقبة.

وقد قال -صلى الله عليه وسلم-:

"اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن".

في عام 2011 حين غابت دولة القانون انتشرت جرائم السرقة والقتل والتعدي على الملكيات، فانتشرت اللجان الشعبية لضبط

الأمور، ولو كان المُتجرئ على المعصية يخشى الله ما أقدم على فجوره "وقد أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: إذ لم تستحِ فافعل ما شئت".

لو أن لصًا دخل مكانًا ليسرق، فرأى فيه كاميرات مراقبة لتراجع خشية الفضيحة وسوء العاقبة، فليعلم كل مُختلٍ بذنبه أنه مراقب والفضيحة مدوية يوم القيامة.

إذا ما خلوت الدهر يومًا فلا تقل خلوت ولكن قل علي رقيب

ولا تحسبن الله يغفل ساعة ولا أن ما يخفى عليه يغيب

قال عليّ بن أبي طالب: إني لأعلم أقوامًا سيسقط لحم وجوههم خجلًا عندما تُعرض قبائحهم على الله.

لو أنك أتيت فعلًا قبيحًا وعاتبك والدك ستعلو وجهك حمرة الخجل، فما بالك لو كان الذي يُعاتبك الله ستزداد حمرة وجهك وسيندفع الدم بغزارة في شرايين الوجه، فلا تتحمل الشرايين اندفاع الدم فتنفجر ويسقط لحم الوجه خجلًا!!

أين كان هذا الحياء في الدنيا؟؟

تخيل جبالًا من الحسنات يجعلها الله هباء منثورًا "كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف" أعلى قوة تدميرية لا يتخيلها عقل بشري، ففزع ثوبان وخشي على نفسه سوء المصير، فسأل النبي عن حالهم.

فجاءه الخبر بأنهم إخوان لنا لهم ورد من قيام الليل، ولكن العلة عندهم الجرأة على الله ومبارزته بالمعاصي.

وقد قال لقمان لابنه وهو يعظه:

يا بني إياك أن تُري الناس أنك تخشى الله ليكرموك وقلبك فاجر.

وهنا سؤال أعلم يقينًا بأنه يجول في صدرك.

جاء في الصحيح "كل أمتي معافى إلا المجاهرون".

في حديث ثوبان أصحاب المعاصي أخفوا معاصيهم، ولم يجاهروا بها، وبمقتضى الحديث الثاني "معافون" فلمَ ذهبت حسناتهم سُدى؟؟؟

مما قيل في هذا الأمر ربما لم يخلوا في بيوتهم، بل مع غيرهم ممن على شاكلتهم، فالمراد خَلَوْا بالمحارم وليس خَلَوْا بأنفسهم، وربما كانت خلوتهم بالمحارم لم يعقبها ندم ولا توبة....

قلبي تعلق بالمعصية

يريدك الشيطان عاصيًا بأي نوع من الذنوب لتكتسب إثمًا، أما لو نفس الذنب يتكرر منك فاعلم أن هذا من نفسك، فادع الله في سجودك أن يُخرج حب هذه الخطيئة من قلبك.

عليك بصحبة الصالحين...

فقد قال فضيلة الشيخ ابن باز -رحمه الله-:

من أسباب التوبة والاستقامة عليها صحبة الأخيار والتأسِّي بهم في أعمالهم الصالحة، والبعد عن صحبة الأشرار.

اسمع واقرأ عن نعيم الجنة وعذاب النار.

قالت عائشة -رضي الله عنها-:

"لو كان أول ما نزل من القرآن لا تشربوا الخمر.

لقالوا لا ندع الخمر أبدًا.

ولو نزل: لا تزنوا.

لقالوا: لا ندع الزنا أبدًا.

إنما نزل سورة فيها ذكر الجنة والنار.

تذكر شؤم المعصية.

قال ابن القيم: "أجمع العارفون بالله أن ذنوب الخلوات سبب الانتكاسات".

أنا الذي أغلق الأبواب مجتهدًا على المعاصي وعين الله تنظرني

ما أحلم الله عني حين أمهلني وقد تماديت في ذنبي ويسترني

قال الحافظ بن كثير:

"إن الذنوب والمعاصي والشهوات تخذل صاحبها عند الموت مع خذلان الشيطان له، فيجتمع عليه الخذلان مع ضعف الإيمان فيقع في سوء الخاتمة".

فاجعل خلوتك بالله لا عن الله: "وهو معكم أينما كنتم" وتأدب في خلوتك ولا تجعل الله أهون الناظرين إليك "ألم يعلم بأن الله يرى"

اتصلت امرأة لعوب بأحد الشباب لتتحدث معه بكلام الغرام، فقال لها الشاب إن هاتفي مراقب، فاندهشت، وقالت: من يراقبك؟ فقال: "وكان الله على كل شيء رقيبًا".

سُئل يحيى بن معاذ: ما العبادة؟

قال: حرفة حانوتها الخلوة وربحها الجنة.

الحانوت هو محل التجارة وقد قيل: خذوا حظكم من العزلة فالعاقل لا يجعل وقته كله للعمل أو للسمر، فلا بد أن يختلي بنفسه.

يتبصر عيوبه ويبكي ذنوبه، ويُقبل على ربه، فبيننا وبين الله -عز وجل- مسافات لا تُقطع بالأقدام إنما بالقلوب.

قال سلمة بن الأعرج: قد رضيت من أحدكم أن يتفقد دينه، كما يتفقد نعله.

لو أنك ذهبت تصلي في مسجد كبير ترمق متاعك مرة، وأخرى تخشى عليه السرقة، فهلَّا رمقت إيمانك لتتفقد حاله.

جاء رجل إلى ابن القيم وقال: دخل اللص بيتي وسرق متاعي.

فقال ابن القيم: احمد الله، لو دخل الشيطان قلبك وسرق منك إيمانك ماذا كنت تصنع؟

بعض الشر أهون من بعضه...

فتفقد إيمانك في الخلوة، وانظر هل سرق الشيطان شيئًا من نوره أو خشيته، أو فرشه ومتاعه أو عبث بزينته.

قال بعض أهل العلم: ولا تزال بركات الخلوة بالله تتنزل على العبد حتى يصل إلى نعيمها ولذتها يختلي بربه فيُرزق نعمة السلامة، ثم تأتيه غنيمة القرب، ثم يغمره غيث الفهم عن الله –سبحانه- ثم يأتيه نعيم الأنس بالله، فلا يعرف نعيمًا ولا لذة إلا في الخلوة بالله -جل وعلا-.

لا تغضب

جارية كانت تصب الماء لعلي بن الحسين، فسقط الإبريق من يدها فشجّ وجهه، فرفع رأسه مغضبًا.

فقالت: "والكاظمين الغيظ".

فقال لها: قد كظمت غيظي.

قالت: "والعافين عن الناس".

قال لها: عفوت عنك.

قالت: "والله يُحب المحسنين".

قال: اذهبي فأنت حرة لوجه الله.

معنى الغضب لغة: اشتداد السخط.

ومعناه اصطلاحا: غليان دم القلب طلبًا للانتقام ممن قدم الأذى.

جاء رجل إلى النبي يطلب الوصية، فقال: لا تغضب.

والرجل يستزيده ويقول: أوصني.

فقال النبي: لا تغضب، ولك الجنة.

أي اجتنب أسباب الغضب ولا تتعرض لما يجلبه.

فقال الرجل بعدها: وجدت الشر كله في الغضب.

خرج زين العابدين بن الحسين بن علي من المسجد، فتعرض له رجل بسوء فأراد الناس أن يتصدوا له، فقال زين العابدين دعوه ثم نظر للرجل، وقال:

ما ستره الله عنك من عيوبي أكثر مما تعلمه عني.

ألك حاجة أعينك عليها؟ فاستحيا الرجل.

فخلع عباءته وأعطاها له، وأمر له بألف درهم.

فكان هذا الرجل كلما قابله في الطريق قال: أشهد أنك من أولاد الأنبياء.

"ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم".

لو قابل السب بالسب لدارت رحى الحرب وقامت الدنيا ولم تقعد، زين العابدين رجل له فضل ويكفيه نسبه الشريف، وربما كغيره لا يريد أن ينتقص أحد من شأنه أو يخدش كرامته عابر، فلو ذهب لينتصر لنفسه ربما كانت الطامة أكبر، فترك الغضب ولا يفعل ذلك إلا عاقل، فكل أحمق بوسعه أن يندفع ويثور ويتوعد غريمه بالويل وعظائم الأمور، ولكنه تجرع غيظه حسبة لله.

عن ابن عمر أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال:

"ما من جرعة أعظم أجرًا عند الله من جرعة غيظ كظمها عبد ابتغاء وجه الله".

وذو سفه يخاطبني بجهل فأكره أن أكون له مجيبًا

يزيد سفاهة وأزيد حلما كعود زاد بالإحراق طيبًا

وقد قال أحد الساسة: لا أحب الانتقام لأني لا أستطيع قضاء عمري في الجري وراء كلب لأعضه كما عضني.

تبع رجل الأحنف بن قيس في طريقه وظل يسبه ويشتمه، ولما اقترب الأحنف من ديار قومه قال له: هات ما بقي عندك حتى لا يسمعك أهل الحي تسبني فيؤذونك فاستحيا الرجل وانصرف.

"وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئًا".

فالإعراض عن الجاهلين عقل ورجاحة، فإن كان للدنيا فهو حكمة ورشد، وتجنب لتبعات الخلاف وحفظ للنفس مكانتها، وإن كان للدين فهو أجر ورفعة منزلة وخلق كريم.

قال ابن عبد البر:

من كظم غيظه ورد غضبه أخزى شيطانه وسلمت مروءته ودينه.

معيار القوة

ما تعدون الصرعة فيكم؟

النبي يسأل أصحابه، فأجابوا بما يقتضيه المنطق.

قلنا: الذي لا تصرعه الرجال.

قال: ليس ذلك، إنما الذي يملك نفسه عند الغضب.

فالإنسان القوي الذي يقوى على نفسه ويتحكم في انفعالاته ولا يدع نفسه لرياح الغضب تهدم بنيانه.

قال ميمون بن مهران:

جاء رجل إلى سلمان الفارسي، وقال: أوصني.

قال: لا تغضب.

قال: أمرتني أن لا أغضب، وإنه ليغشاني ما لا أملك.

قال: فإن غضبت فاملك لسانك ويدك.

صارحه الرجل بحقيقة أمره، أنه يغشاه من الهياج والرغبة في الثأر ما لا يقوى على كبحه، فأوصاه سلمان: أملك يدك ولسانك.

قال عمر: من خاف الله لم يشفِ غيظه ومن اتقى الله لم يصنع ما يريد ولولا يوم القيامة لكان غير ما ترون.

وقد قال -صلى الله عليه وسلم-:

"ليس المؤمن بضراب ولاطعّان ولا لعان ولا فاحش ولا بذيء".

قال الحسن: المؤمن حليم لا يجهل وإن جُهل عليه، وتلا قول الله -عز وجل-: "وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلامًا".

قيل لعبد الله بن المبارك: أجمل لنا حسن الخلق.

قال: لا تغضب.

أتى ابن المبارك بكلمة واحدة في جعبتها مكارم الأخلاق، فانظر في حال المغضب ينطلق لسانه بالقبح والشتائم وتضطرب حركته وتمور كلماته، وترتعد أطرافه، وربما عاد بالغضب على نفسه فمزق ثوبه أو خفق رأسه بنعله أو حطم أشياء حوله، ولو رأى الغضبان صورته وهو ثائر لاستعاذ من قبح صورته، أوقعتني الظروف مرة وسط مشاجرة بين الشباب وكان أكثرهم هياجًا يحمل عصى، ولا يقوى أحد على مواجهته، فسقط فجأة مغشيًا عليه، وأصبح عاجزًا عن الحركة بينما كان في قوة عنفوانه فخانته حماسته وسقط ببدنه وهيبته.

وقد قال ابن القيم: الدين كله خلق، فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في الدين.

ومن المشكاة نفسها خرجت علينا كلمات ابن المبارك:

كاد الأدب يكون ثلثي الدين.

قد جاء في أمثال العرب: الغضب أوله جنون وآخره ندم، جمرة من النار يعمد الشيطان ويلقيها في جوف ابن آدم فيشتعل غضبًا ويتشاجر وربما تجرأ وقتل فيزجّ به في السجن، ويُحمل غريمه إلى القبر.

قال علي بن أبي طالب: دُمْ على كظم الغيظ تُحمد عواقبك.

عن أنس أن النبي -صلى الله عليه وسلم- مر بقوم يصطرعون

فقال: ما هذا؟ قالوا: يا رسول الله، فلان الصريع لا يُنتدب له إلا صرعه. فقال -صلى الله عليه وسلم-: ألا أدلكم على ما هو أشد منه؟

رجل ظلمه رجل، فكظم غيظه، فغلبه وغلب شيطانه، وغلب شيطان صاحبه.

قال الحسن: أربع من كن فيه عصمه الله من الشيطان وحرمه على النار: من ملك نفسه عند الرغبة، والرهبة، والشهوة، والغضب.

كلم رجل الخليفة عمر بن عبد العزيز حتى أغضبه، فهمّ به عمر ثم أمسك نفسه، ثم قال للرجل: أراد الشيطان أن يستفزني بعز السلطان، فأنال منك اليوم ما تناله مني غدًا، قم -عافاك الله- لا حاجة لنا في مناوشتك. قال -تعالى-: فاعف عنهم واصفح إن الله يُحبُ المحسنين".

✍ دعوة كريمة

قال -صلى الله عليه وسلم-:

"من كظم غيظًا وهو قادر على أن ينفذه ولو شاء أن يمضيه أمضاه دعاه الله على رؤوس الخلائق حتى يخيره من الحور العين ما شاء".

لو أن جارك أقام عرسًا ولم يوجه لك دعوة لوجدت في نفسك شيئًا نحوه، وانتابك الحزن؛ لأنه استقل بشأنك وتجاهل دعوتك، فلو فاتتك دعوة الملك لكان حزنك أشد وخسارتك أكبر، وأنت من فرّط أولًا وآخرًا، بحثت عن حظ نفسك وهرولت خلف عنترية زائفة لم تبق إلا ساعة، ثم ذهبت أدراج الرياح، فلو أغمضت أذنك عن كلام الناس وكظمت غيظك لكان خيرًا لك، فالناس لن ترضى منك بحال، لو ثأرت لقالوا: أرعن وأهوج ولو آثرت السلامة لقالوا: عاجز رضي لنفسه بالهوان، وليس الأمر كما زعموا، فالمؤمن هين لين، والمجتمع يُبنى على الترابط "رحماء بينهم".

فلا تُفرط في الأجر: "وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم".

فالحور العين في انتظارك وهذا مهرها، فمن الخاطب منكم؟

سأل عبد الله بن عمر النبي -صلى الله عليه وسلم-:

ما الذي يباعدني عن غضب الله؟

قال: لا تغضب.

فالله -عز وجل- يغضب ويعاقب بالذنب، وأشد غضبه يوم القيامة، فخشي ابن عمر أن يقع عليه غضب الله، فدله النبي على طريق النجاة، وقال: "لا تغضب".

٢ علاج الغضب:

من الصيدلية المحمدية أتيك به، على صاحبها أفضل الصلوات وأتم التسليم.

استب رجلان عند النبي وأحدهما قد احمرّ وجهه وانتفخت أوداجه، فقال -صلى الله عليه وسلم-: "إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد، لو قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

فقالوا للرجل: ألا تسمع ما قاله -صلى الله عليه وسلم-؟ قال: إني لست بمجنون"

الغضب مفتاح الشر، فأرشدنا النبي لما نستجلب به السكينة بعيدًا عن المهدئات ومشاهدة الطبيعة وتأمل الغروب.

فقط تحتمي بالله "وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله"

فالغضب من نزغات الشيطان، فقد انتفخت عروق عنقه واحمرّ وجهه، وربما اشتد غليان قلبه وارتعشت جوارحه، فلو قالها بصدق وعزيمة لذهب غضبه، فالله يُعين من التجأ إليه واحتمى به، وحين أخبروا الرجل بما قاله النبي اعترض قائلًا: "لست بمجنون" وهمًا منه أن الاستعاذة حكر على المجانين وأنت أعقل من الرجل الذي ردّ على النبي أمره، فربما كان منافقًا أو من جفاة الأعراب.

فعندما تستشعر بوادر الغضب تسري في جسدك ردد: "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم".

يأتينا أحمد من مسنده بالعلاج الثاني:

"إذا غضب أحدكم فليسكت"

الغضبان تتفلت منه كلماته ويجلب على نفسه العداوة، وربما أفشى أسرار الناس أو شهر بهم لينتقص من حقهم، وربما قال عبارات كفرية أو اشتد غيظه، فقذف محصنة وهدم بيتها، وربما بيته، وحلف بالطلاق وأغلظ الأيمان ووطئ من بانت منه.

مسّ الحزن قلبي، وتأسفت على حال الناس في بلدي حين علمت بوقوع حالة طلاق كل ست دقائق مما يهدد نسيج المجتمع.

مما جعلني أسأل بدافع الاهتمام وشيء من الحذر: هل لغياب الحب أم لغياب الحكمة؟

جاء رجل إلى عمر بن الخطاب، وقال: إني لا أحب زوجتي.

وظن الرجل أن عمر سيقول طلقها ولا تذرف عليها دمعة، ولكن عمر فاجأه بقوله: إن البيوت لا تُبنى على الحب.

"ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجًا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة".

لم يقل الله -عز وجل-: وجعل بينكم عشقًا وولهًا فيكفي بيتك المودة والرحمة ليبقى، وسأصطف في معسكرك وسأكون إلى جوارك وأعتبرك ضحية، ولكن ما هكذا تورد الإبل، فالمرأة خلقت من ضلع أعوج، ولو

ذهبت تُقيمه كسرته، وأفرغت ما في جعبتك من أيمان الطلاق، فاقبل الضلع على عوجه.

حتى لو صرخت في وجهك غاضبة "طلقني" لا تواجه غضبها بغضب مثله، اذهب إلى غرفة أخرى أو انحدر مع درج المنزل. وعلى الزوجة أن تلتزم بالعلاج "إذا غضب أحدكم فليسكت" لا ترد الكلمة بمثلها أو بعشرة، كما أخبروها، وأنا على يقين بأن الأهل لن يكونوا سعداء حين تعود لهم ابنتهم بحطام جهاز تكبدوا ثمنه، وبأطفال تعلقوا بذيل ثوبها.

فالصمت دواء فعال كماء أسكبوه على نار فأخمد جذوتها، فالبيوت تحتاج إلى الحكمة والرحمة، قبل الكساء والغذاء، فإن كان الأب دائم الغضب والأم لا تكف عن الصراخ، والطبع لِصٌ، كما نعلم والقدوة قد غابت، فسيكون لنا في الغد جيل من الحمقى لن تُحمد عواقبه، فقبل أن تحتج بضغوط الحياة وترفع يديك ملوحًا بقميص عثمان، وتضع "لحظة الغضب" في قفص الاتهام اسكت -عافاك الله- فالوقاية خير من العلاج.

يأتينا أبو ذر بالعلاج الثالث:

"إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس، فإن ذهب عنه الغضب وإلا فليضطجع".

بدّل الهيئة التي أنت عليها، فاجلس إن كنت واقفًا، ولعلك تسأل في نفسك: ما الداعي لذلك؟

القائم متهيئ للبطش وتوجيه الضربات، والقاعد أبعد عن ذلك، وإن بقي في نفسك شيء من الغضب، فاضطجع إن تيسر، وكان بمقدورك ولا تستثقل الأمر، فالنبي يرود انفعالك ويكبح جماح غضبك بالقعود والاضطجاع حتى تخرج من ثورتك سالمًا.

لم نخرج من الصيدلية بعد...

والعلاج الرابع ناولنا إياه الإمام مسلم من صحيحه:

"ما زاد الله عبدًا بعفوٍ إلا عزًا".

فاصفح عنهم وسيقع أجرك على الله، وامض ولا تلتفت، وتجاوز لعل الله يتجاوز عنك، وقد تعلمنا من السيرة العفو عند المقدرة.

دخل أبو الدرداء -رضي الله عنه- المدينة.

فقال لهم: ما لي لا أرى عليكم يا أهل المدينة حلاوة الإيمان؟

والذي نفسي بيده لو أن دُبّ الغابة وجد طعم الإيمان لرؤي عليه حلاوة الإيمان.

قال -تعالى-: "والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا"

كلما اقترب العبد من الله وجد طعم الطاعة وشذاها يملأ عليه حياته، حتى يتحقق وعد الله له: "فلنحيينه حياة طيبة".

وهذا من بديع كلام ابن القيم -رحمه الله-.

وقفة مع الصلاة

أما عن الحسن، فقد قال:

اطلبوا حلاوة العبادة في ثلاث:

في الصلاة، وفي القرآن، وفي الذكر.

فإن وجدتموها فامضوا وأبشروا، وإن لم تجدوها فاعلموا أن الباب بينكم وبين الله مغلق.

الصلاة صلة بين العبد وربه يجد فيها الراحة ويستدر منها السكينة، وقد قال -صلى الله عليه وسلم-: "أرحنا بالصلاة يا بلال".

وما جعلها الله لك في اليوم خمس مرات إلا لحاجتك للراحة، فلو أمضيت حياتك كالآلة لأصابك العطب، ولحدث لك خلل في برمجتك الداخلية "ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير". فقد خدعونا بقولهم: العمل عبادة، كلام ليس له أصل ولم يرد به نص، وأي عمل أعظم من الجهاد حتى لو احتمى القتال لا تسقط الصلاة عن المجاهد فيصلي ولو بالإيماء، فما بالك وعملك دون الجهاد.

يقول ثابت البناني: كابدت قيام الليل عشرين سنة، ثم تلذذت به عشرين سنة أخرى، والله إني لأدخل الصلاة لا أحمل إلا همَّ الخروج منها.

من يحتاج إلى الآخر؟

الله غني عن عباده، ولا يحتاج إليهم، فلا تنفعه طاعة ولا تضره معصية، فلو كان العباد على أتقى قلب ما زاد في ملك الله شيئًا، ولو كان العباد على أفجر قلب ما نقص في ملك الله شيء.

فالعبد حاجته إلى الله لا تنقطع، وينبغي على العبد أن يُدرك ذلك فحين يدعوه ربه إلى لقائه، فليعلم أنه الرابح من هذا اللقاء.

وقبل أن أحدثك عن الربح تعال نبحث في أصل الإنسان سنجده مخلوقًا من قبضة أرضية ونفخة سماوية.

قبضة أرضية من أدمة الأرض ونفخة سماوية حيث قال -تعالى-: "ونفخت فيه من روحي" فالجسد غذاؤه الطعام والشراب.

أما الروح فلها غذاء آخر، سأذكره لك بعد سرد تلك القصة.

يحكي أحد الدعاة وسأدع له خيط الكلام، فهو أفصح مني لسانًا:

ذهبت إلى السويد في رحلة دعوية، فرأيت في أحد تنقلاتي طوابير من الناس فتعجبت ما حاجتهم للتزاحم ومعدل دخل الفرد يضمن لهم كفلًا من الرفاهية، فاقتربت من أحدهم، وسألته علامَ اجتمعتم؟

فقال: جئنا لنسجل أسماءنا، فسألته هل ستأخذون دعمًا أم تتطوعون في عمل؟ قال: لا، ولكنا أخذنا قرارًا بالانتحار، قد سئمنا الحياة، وما الداعي إذن لتسجيل أسمائكم؟

قال حين تجد الشرطة جثة أحدنا ستتبع الأمر، وتظن أن هناك شبهة جنائية، فجئنا لنيسر عمل الشرطة، كل منا سيسجل اسمه ومكان الانتحار ووقت التنفيذ والأداة المستخدمة!!

ما الذي جعلهم يُقبلون على زهق أرواحهم؟ حتى إن سويسرا بلد المال والأعمال بها عيادات تقدم لك الطريقة المثلى للانتحار. ما الذي وصل بهم إلى سأم الحياة فزاد ضجرهم وتعجلوا الموت؟

هم أشبعوا الجسد بالشهوات والملذات، أما الروح فلم تجد لها غذاء، فتبرمت وتعست وشقي صاحبها.

وقد انتقل إلينا الداء حين حذونا حذوهم، وحق لي أن أقول بملء فمي:

عار على بلاد الإسلام أن يوجد فيها مريض نفسي،

وعندنا الصلاة "أرحنا بها يا بلال".

وعندنا القرآن "وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة".

وعندنا اليقين بالأجر "وبشر الصابرين".

سُئل الحسن البصري: أين تجد الراحة؟

فقال: سجدة بعد غفلة، وتوبة بعد ذنب.

غذاء الروح:

الروح من نفخة سماوية فتميل إلى موطنها، فتجد غايتها في الصلاة والذكر، وهم يقينًا لم يجربوا هذا العلاج، ولم يُشبعوا الروح بغذائها، فلا تتعجب مما صنعوا.

وهذا آخر اصطف معهم في معسكر الكفر، ولكنه خالفهم وتناول العلاج.

يقول غاندي: لولا الصلاة لصرت مجنونًا منذ زمن بعيد.

لم يكن مسلمًا، ولكنه كان يمارس تطلعات إلى السماء، استمد منها القوة وناضل ضد أعدائه.

رمدت عين ابن عباس وكاد يذهب بصرها، فقال له الطبيب: أدوايك على أن تصلي مُستلقيًا، أي لن تصلي في جماعة، ولن تسجد أو تركع بضعة أيام.

فأبى ابن عباس واختار العمى، فلذة قربه من الله ساجدًا أكبر من تمتعه ببصره.

قال ابن القيم: لا يزال المرء يُعاني الطاعة حتى يألفها ويحبها، فيقيض الله له ملائكة تؤزه إليها أزًا توقظه من نومه إليها ومن مجلسه إليها.

كان منصور بن المعتمر يُصلي على سطح بيته، فلما مات قال غلام من بيت جيرانه لأمه: الجذع الذي كان في سطح المنصور لست أراه.

فقالت أمه: لم يكن جذعًا بل كان المنصور يُصلي وقد مات.

قال ابن وهب: رأيت سفيان الثوري في الحرم بعد المغرب صلى، ثم سجد سجدة فلم يرفع حتى نودي بالعشاء.

قالت زوجة عثمان -رضي الله عنه- للثوار الذين حاصروا داره: إن تتركوه أو تقتلوه، فإنه كان يُحيي الليل كله في ركعة يجمع فيها القرآن.

٢ الصلاة نور:

نور للعبد في قلبه فتمنعه من المعاصي.

"قالوا يا شُعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا".

أجرها لصاحبها يكون كالنور يوم القيامة.

نور لصاحبها في القبر، ونور له في الحشر.

نور لصاحبها تفتح له باب العلم والمكاشفة.

نور لصاحبها يرشده إلى الخير فيتبعه.

نور في وجه صاحبها، ويكون عليه من البهاء.

"سيماهم في وجوههم من أثر السجود"

سُئل الحسن البصري: ما بال المتهجدين بالأسحار أحسن الناس وجوهًا؟

قال: لأنهم خلوا بالرحمن فألبسهم الله من نوره.

قال -صلى الله عليه وسلم-:

"اتقوا فراسة المؤمن فإنه يرى بنور الله"

ويبقى مصدر النور في حياة العبد من تجلياتها وحرصه عليها.

عبد الله بن عباس كان في سفر فبلغه أن ابنته قد ماتت، فحمد الله واسترجع، ثم نزل من على الدابة وصلى ركعتين.

وقال: هكذا أمرنا أن نصنع.

ثم تلا قوله -تعالى-: "واستعينوا بالصبر والصلاة".

التهيئة والمبادرة

يقول عدي بن حاتم:

ما نُودي للصلاة منذ أسلمت إلا وأنا على وضوء.

أحد السلف قال: إذا رأيت الرجل لا يُبالي بتكبيرة الإحرام فاغسل يديك منه.

من السبعة الذين هم في ظل العرش يوم القيامة، رجل قلبه معلق بالمساجد، ينتظر الصلاة بعد الصلاة ليذهب إلى المسجد، ويستعيد قلبه المعلق هناك.

لما حضرت الوفاة سعيد بن المسيب اجتمعن بناته حوله وبكين.

فقال: أحسنوا الظن بالله، فوالله ما فاتتني تكبيرة الإحرام في المسجد منذ أربعين سنة.

عبد الله بن مسعود يقول: سألت النبي -صلى الله عليه وسلم-:

أي العمل أفضل؟ قال: الصلاة لوقتها.

قلت: ثم أي؟ قال: بر الوالدين.

قلت: ثم أي؟ قال: الجهاد في سبيل الله.

إبراهيم بن ميمون المحدث كان يعمل صائغًا يطرق الذهب والفضة، فإذا رفع المطرقة وسمع النداء وضعها ولم يطرق بها.

هز النداء كيانه فاستخف عمله وغلبه اليقين أن الله أكبر.

روى الشيخان عن أبي هريرة "لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول، ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا، ولو يعلمون ما في التهجير لاستبقوا إليه، ولو يعلموا ما في العتمة والصبح لآتوهما ولو حبوًا".

لو يعلم الناس فضل الأذان لكانت بينهم قرعة على من يرفع الآذان، ولو يعلم الناس فضل الوقوف في الصف الأول لاقترعوا مرة أخرى، ثم أرشدنا النبي لفضل التبكير إلى المسجد، وما في صلاة العشاء والفجر من أجر.

روى مسلم في مصنفه "لا يزال قوم يتأخرون حتى يؤخرهم الله".

قال النووي: يتأخرون عن الصفوف الأولى حتى يؤخرهم الله -تعالى- عن رحمته وعظيم فضله ورفع المنزلة.

فما بالك بمن لا يخطو باب المسجد إلا ليشهد جنازة صديق أو ليستريح من عناء يومه أو ليرتاد مرحاضًا.

يقول ابن عمر:

كنا إذا فقدنا الرجل في صلاة العشاء وصلاة الفجر أسأنا به الظن.

فكيف لو كانوا معنا وافتقدونا في كل صلاة، وليس لنا عذر إلا اللهو والسمر وعمل قليل.

بيوت أذن الله أن تُرفع تشتكي هجر المصلين وقلة الوافدين، أخذتهم المضاجع والمقاهي وجلسات السمر، وتجد أحدهم يضبط تنبيه الهاتف

لوقت العمل لا لوقت الصلاة، تعمد أن يكون من الغافلين وما لجرح بميت إيلام، وبئس العبد عبد سهى ولهى، ولم يدرِ المبدأ والمنتهى. فحساب العبد يوم القيامة سيبدأ بصلاته، فإن صلحت صلح سائر عمله، وإن فسدت بتهاونه وتقصيره فسد سائر عمله.

خرج عبد الله بن عمر إلى حائط له -أي بستان نخيل- فرجع وقد صلى الناس العصر فاسترجع قائلًا: إنا لله وإنا إليه راجعون، فاتتني صلاة العصر في الجماعة أشهدكم أن حائطي على المساكين صدقة.

وفاتته في إحدى الليالي صلاة العشاء في جماعة فأحيا ليلة كاملة، وأعتق رقبة، وأصبح صائمًا وتصدق بصدقة.

والله إني لأجد حسرة في نفسي حين أرى شبابًا يتسكع في الشوارع وقت الصلاة هائمًا على وجهه، يخطو، ليس له طموح أو رغبة أو سعي نحو آخرته، في مثل عمرهم كان أسامة بن زيد يقود الجيش، وأكبر منهم قليلًا كان محمد الفاتح يدك حصون القسطنطنية "رضوا بأن يكونوا مع الخوالف"، لو تأملت أعمار المصلين في المساجد لوجدت جلهم على أعتاب الأربعين، وشيوخ قد هرموا لم يكن في عُصبهم مآرب أخرى غير أن يتكئوا عليها.

كان في بلدتنا رجل كبير يُعاني عجزًا في إحدى قدميه كان حريصًا على التبكير للمسجد، لم يأخذ وحل الطريق من عزمه مرة، ولم يرده حر

الظهيرة عن غايته أبدًا، إذا انتهت من نومي لصلاة الفجر ووسوس لي الشيطان أن أتوانى قليلًا، فإذ بي أقف فزعًا وأقول سبقني إلى المسجد.

كان الربيع بن خثيم قد سقط شقه في الفالج، وأصيب بشلل نصفي، وكان يخرج إلى الصلاة يتوكأ على رجلين، وقد عذره الله الذي يُحب أن تؤتى رخصه، ولكنه لم يعذر نفسه، كيف لا يُلبي حي على الفلاح.

وغيره صحيح البدن معافى لا يدخل المسجد إلا يوم الجمعة أو في الأيام الأولى من رمضان، وكأن الحسن يضرب قلوبهم بسياط وعظه لو كانت بالقلوب حياة "يا ابن آدم وماذا يعز عليك من دينك إذا هانت عليك صلاتك".

يقول حاتم الأصم: فاتتني صلاة العصر في جماعة فعزاني بعض أهل المدينة، ولو مات أحد أبنائي لعزاني كل أهل المدينة ووالله لموت أبنائي جميعًا أهون عندي من فوات صلاة الجماعة. كانوا يعزون أنفسهم في فوات صلاة الجماعة وقد قال الشافعي: لا أنسى يدًا امتدت إليّ تعزيني لأني فاتتني تكبيرة الإحرام خلف الإمام، لم تفته صلاة الجماعة، فربما أدركهم في الركعة الثانية، ولكن فاتته تكبيرة الإحرام فعزاه أصحابه، فكيف تَردَّينا في هذه الهوة السحيقة من الكسل والتفريط، وقد روي "أول ما يحاسب العبد من عمله صلاته، فإن صلحت فقد أفلح وأنجح، وإن فسدت فقد خاب وخسر" ونجد أن العلماء الأوائل لم يبحثوا في

مسألة تارك الصلاة، فلم يتخيلوا أن مسلمًا لا يصلي، والمساجد تشتكي هجر العباد.

قال ابن القيم: للعبد بين يدي ربه موقفان: موقف بين يديه في الصلاة، وموقف بين يديه يوم لقائه، فمن قام بحق الموقف الأول هون عليه الموقف الآخر، ومن استهان بهذا الموقف ولم يوفّه حقه شد عليه ذلك الموقف.

فلما سقطت من أولوياتنا سقطنا، ولما صغرت في أعيينا صغرنا.

لص في المسجد:

أصارحك عن نفسي بشيء، ربما لا أحسن الصلاة ولا أطيل فيها بقدر يُحمد، لكن أحيانًا يُسلم الإمام وقد بقي لي ركعة وكذلك من بجانبي فأقرأ الفاتحة، وقبل أن أنتهي منها أجد من بجواري قد ركع وسجد وجلس للتشهد.

قال أبو هريرة: إن الرجل ليصلي ستين سنة، ولا تُقبل منه صلاته.

فقيل له: كيف ذلك؟

قال: لا يتم ركوعها ولا سجودها ولا قيامها ولا خشوعها.

فالعبرة ليست بحركة الجسد، بل بحضور القلب وتحصيل الخشوع فاركع حتى تطمئن راكعًا، واسجد حتى تطمئن ساجدًا.

يقول الإمام أبو حامد الغزالي:

إن الرجل ليسجد السجدة يظن أنه تقرب بها إلى الله -سبحانه وتعالى- ولو وزع ذنب هذه السجدة على أهل بلدة لأهلكتهم.

سئل: كيف ذلك؟

قال: يسجد بين يدي مولاه وهو منشغل باللهو والمعاصي والشهوات وحب الدنيا، فأي سجدة هذه؟

لم أنسَ وعدي لك، سأخبرك عن اللص لاحقًا.

حكى لي أحد الشباب أنه يسهو في صلاته وتأتيه أفكار شهوانية حتى تنتصب فيه رغبته، وآخر أخرج من جيبه فاتورة الحساب ليُراجعها، فقد وسوس له الشيطان بأن التاجر قد أخطأ، فصار الإمام يكبر، وهذا يجمع ويحسب. أي صلاة هذه؟!!

ودعني أسألك: لمَ لا تنشغل بتلك الأفكار، وأنت تشاهد المباراة أو حين تتناول طعامك؟

الشيطان يُعطيك الخيط، وأنت تجره، فانتبه، ولا تذهب بعيدًا فأنت في حضرة الملك، فصلِّ صلاة تليق بمعبودك.

لو انتبهت لقراءة الإمام أو تمعنت قراءتك أو استحضرت عظمة الله في قلبك ما جال خاطرك في كل وادٍ، ولشعرت بالراحة وملأت جوانحك السكينة، ولكنك لم تُبال بما تصنع، فازداد عدد اللصوص في المسجد.

عن أبي قتادة -رضي الله عنه- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: "أسوأ الناس سرقة الذي يسرق من صلاته.

قيل: كيف يسرق من صلاته؟

قال: لا يتم ركوعها ولا خشوعها ولا سجودها".

أسوأ اللصوص الذي يسرق من صلاته، لا الذي يسرق المال العام أو يقطع الطريق ليلًا ليسطو على المارة، لص الدين شر من لص الدنيا.

بعض الأئمة -عافاهم الله- تجدهم يقرأون في الصلاة الجهرية بأحكام متقنة ومدود مستوفاة حتى إذا جلس للتشهد الأوسط وقام ليُكمل صلاته سرًا شككت في أمره، هل حقًا قرأ الفاتحة أم لا؟

هل الفاتحة جهرًا تختلف أحكامها عندما تُسر بها؟ هل كان في حوار مع الله أم تعجل من أجل دنيا يُصيبها؟

يقول الله -عز وجل- في الحديث القدسي: "قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، فإذا قال عبدي "الحمد لله رب العالمين" قال الله: حمدني عبدي.

فاذا قال: "الرحمن الرحيم". قال الله: أثنى علي عبدي.

فإذا قال: "مالك يوم الدين". قال الله: مجدني عبدي.

فإذا قال: "إياك نعبد وإياك نستعين" قال الله: هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل".

الله -عز وجل- خاطب موسى: "وما تلك بيمينك يا موسى، قال هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى".

لم يكتفِ موسى بقوله: "هي عصاي" كإجابة على السؤال حيث في الكلام مع الله لذة، فأراد موسى أن يستزيد لنفسه.

فلمَ زهد الإمام أو من يصلي منفردًا في تلك اللذة؟ ثم تسمع من يشتكي: صليت ولم أجد الراحة، ولم أجد لذة، ولم أنتهِ عن سوء صنيعي.

تعال نتفق أن الصلاة كما هي لم يطرأ عليها أي تغيير، ولكن العبرة ليست بالحركات، إنما بالنبضات.

"قد أفلح المؤمنون، الذين هم في صلاتهم خاشعون".

والخشوع في القلوب وليس في الرقاب.

كيفية تحصيل الخشوع:

زين العابدين بن الحسين كان يُصلي في المسجد، فانهدم أحد أركان المسجد فلم ينتبه، ومضى في صلاته، فلما سلَم منها، قال: ما هذه الغبرة؟

قالوا: أما سمعت؟! قد سقط جانب المسجد.

قال: لم أشعر بذلك كنت في شغل عنها.

أراد الأطباء أن يقطعوا ساق عروة بن الزبير، فقال لهم: انتظروا حتى أدخل في الصلاة، ثم اصنعوا ما بدا لكم.

واجب عملي:

على باب المساجد اخلع الدنيا مع نعليك، وفرغ قلبك للقاء الله.

لا تكرر السور القصيرة التي تقرأها بعد الفاتحة.

صلِّ في أكثر من مسجد وأكثر من موضع في المسجد الواحد.

تدبر ما تقرأ ولو عينت الآيات والسور القصيرة سلفًا لكان أفضل، وأرجو منك ألا تُكررها إلا بعد أيام.

أحد الشباب يقول: هممت أن أدع الصلاة، فلم تنهني عن المحرمات، وقد جاء في الحديث: "من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له".

فقلت له: لا تدع صلاتك، وهذا الحديث لا يُحتج به، فقد أورده الإمام الألباني في السلسلة الضعيفة، وقال: حديث باطل لا يصح من قبل إسناده ولا من جهة متنه.

وآخر يقول: أحيانًا أفرح بالصلاة، وأحيانًا أشعر بثقل الصلاة، وكأنها جبل قابع على صدري، القلوب تموت وتحيا، والنفس لها إقبال وإدبار، فاغتنم إقبالها، وصلِّ النافلة عقب الفريضة، وعند إدبارها فاحملها فقط على الفريضة.

وقفة مع القرآن

طبيب له صيت في مجال الطب النفسي...

قال: زارني في عيادتي كل أطياف المجتمع إلا حملة القرآن.

قال خباب ابن الأرت:

تقرب إلى الله ما استطعت، واعلم أنك لن تتقرب إليه بشيء أحب إليه من كلامه.

ثلاثة ملايين في رصيدك:

قال -صلى الله عليه وسلم-: "من قرأ حرفًا من كتاب الله فله به حسنة والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول: "ألم" حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف".

عدد حروف القرآن تزيد عن ثلاثمائة ألف حرف، ولك عشر حسنات عن كل حرف تقرأه، سيكون أجر الختمة الواحدة أكثر من ثلاثة ملايين حسنة في رصيدك.

فما الذي يشغلك عن قراءة القرآن؟

عمل.. دراسة.. سفر.. ضغوط الحياة...

قال -صلى الله عليه وسلم-: "ما زاحم القرآن شيئًا إلا باركه".

قال ابن مسعود: ثلاث من كن فيه ملأ الله قلبه إيمانًا:

صحبة الفقيه، وتلاوة القرآن، والصيام.

شرف وفضل ورفعة:

قال -صلى الله عليه وسلم-: "إن لله أهلين من الناس قالوا: يا رسول الله، من هم؟ قال: هم أهل القرآن أهل الله وخاصته".

قال -صلى الله عليه وسلم-: "يُقال لصاحب القرآن: اقرأ وارتق ورتل، كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرأها".

قال -صلى الله عليه وسلم-: "الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرأ القرآن وهو عليه شاق له أجران".

قال -صلى الله عليه وسلم-: "خيركم من تعلم القرآن وعلمه".

من آداب القراءة:

التدبر، فقد أوصى أحد السلف ابنه: اقرأ القرآن، وكأنه عليك نزل.

التطهر من الحدث: "لا يمس القرآن إلا طاهر".

لو تيسر لك أن تستقبل القبلة.

الترتيل الحسن "إن من أحسن الناس صوتًا بالقرآن الذي إذا سمعتموه يقرأ حسبتموه يخشى الله".

لا تقرأ في المصحف، كما تقرأ من الصحيفة، بل تدبر واستشعر لذة المناجاة.

قال ابن مسعود: ".. قفوا عند عجائبه، وحركوا به القلوب، ولا يكن همّ أحدكم آخر السور".

ومن لا يُحسن القراءة، فليس بمحروم من الأجر: "من استمع إلى آية من كتاب الله كانت له حسنة مضاعفة، ومن تلاها كانت له نورًا يوم القيامة".

المهم أن تبقى عامرًا...

فقد روى الترمذي: "إن الذي ليس في جوفه شيء من القرآن كالبيت الخرب".

وقد قال ابن مسعود: إن أصفر البيوت من الخير البيت الصفر من كتاب الله.

لو أذنت لي اطرح شواغل عقلك جانبًا، وتدبر معي ما تعثر علي تدبره.

في البداية سأضع مُسلمات أربع كتوطئة:

القرآن نور: "واتبعوا النور الذي أنزلنا".

والذي أنزل القرآن نور: "الله نور السموات والأرض".

والذي نزل بالقرآن نور، جبريل من الملائكة، وهم من نور.

والذي نزل عليه القرآن نور: "لقد جاءكم من الله نور وكتاب مبين".

فما بال التعاسة والظلمة والشقاء والضجر تملأ حياتنا؟؟

تلتقط خيط الكلام، وتقول: دع الإجابة لي هذه المرة، وتطلب مني أن أفتح المصحف وأقرأ الآية رقم 124 وما بعدها من سورة طه.

"ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكًا ونحشره يوم القيامة أعمي * قال ربي لمَ حشرتني أعمى وقد كنت بصيرًا * قال كذلك أتتك آيتنا فنسيتها وكذلك اليوم تُنسى".

وضعت يدك على الجرح، وكأن الآية تقطرُ منها الحسرة على حالنا، وإلى الله المشتكى فرفع النبي شكوته: "وقال الرسول يارب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورًا".

قال عبد الملك بن عمير -رحمه الله-:

أبقى الناس عقولًا قُرّاء القرآن.

مهما بلغ العمر بصاحب القرآن، فلن يُنكر له عقل.

قال عبد الله بن الزبير: بلغت أمه أسماء التسعين من عمرها، ولم يسقط لها سن أو يُنكر لها عقل.

مرض وعلاج:

يشتكي البعض أنه لا يجد لذة في قراءة القرآن.

قال سلم الخواص: قلت لنفسي: يا نفسي، اقرئي القرآن كأنك سمعتيه من الله حين تكلم به، فجاءت الحلاوة.

قال الطبري:

عجبت لمن يقرأ القرآن وهو لا يعرف معانيه، كيف يلتذ بقراءته.

أحضر كتاب معاني كلمات القرآن ومصحفًا بحاشيته شرح مبسط، وابتعد عما يشغلك كالهاتف والأولاد، وستجد من اللذة ما يملأ صدرك.

ابن تيمية شيخ الإسلام الذي تصدى للفرق الضالة، ونافح عن الدين، وصنّف من الكتب الكثير حين دخل السجن، ولم يعد له إلا صحبة القرآن، قال: ليتني وهبت القرآن عمري.

وقفة مع الذكر

إذا استغنى الناس بالدنيا فاستغنِ أنت بالله، وإذا فرحوا بالدنيا فافرح أنت بالله، وإذا أنسوا بأحبابهم فاجعل أنسك بالله، وإذا تعرفوا إلى ملوكهم وكبرائهم لينالوا بهم العزة والرفعة، فتعرف أنت إلى الله، وتودد إليه تَنَلْ بذلك غاية العز والرفعة.

ابن القيم

قال عبد الله بن عباس:

ما من عبادة فرضها الله على عباده إلا جعل لها حدًا معلومًا ووقتًا معلومًا، وعذر أهلها في حال العجز عنها، إلا الذكر، فقال الله -عز وجل- : "فاذكروا الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبكم".

كان أحد السلف يُكثر الجلوس في بيته فقيل له: ألا تستوحش؟

قال: كيف أستوحش والله -عز وجل- يقول: "أنا جليس من ذكرني".

جاء رجل إلى الحسن البصري، وقال: أي الأعمال أفضل؟

فقال: يا رجل أما تقرأ القرآن "ولذكر الله أكبر".

قال أحد السلف لإخوانه: أنا أعرف متى يذكرني ربي.

فتعجبوا: أويذكرك الله؟ قال: نعم عندما أذكره.

وإن شئتم فاقرأوا قوله -تعالى-: "فاذكروني أذكركم".

من الذي يذكرك... رئيس من الرؤساء أو وزير من الوزراء؟

يكفيك شرفًا أن الذي يذكرك رب الأرض والسماء.

وقبل أن نسترسل في الحديث عن صيغ الذكر وآدابه تعال نطرح سؤالًا، وإن بَدَتْ به غلظة وجفاء:

لماذا نذكر الله؟

امتثالًا للأمر: "يا أيها الذين ءامنوا اذكروا الله ذكرًا كثيرًا".

طلبًا للفلاح: "واذكروا الله كثيرًا لعلكم تُفلحون".

رجاء المغفرة: "والذاكرين الله كثيرًا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرًا عظيمًا".

طلبًا لمعية الله: قال -تعالى-: "أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت بي شفتاه".

حتى ندفع عن أنفسنا صفات المنافقين وقد قال الله فيهم: ".. يُراؤون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلًا".

قيل لأبي الدرداء: كم تُسبح في اليوم؟

قال: مائة ألف تسبيحة إلا أن تُخطئ الأصابع.

وكان أبو هريرة يُسبح كل يوم اثنتي عشرة ألف تسبيحة.

عن عبد الله بن بسر أن رجلًا أتى النبي -صلى الله عليه وسلم-وقال: يا رسول الله، إن شرائع الإسلام قد كثرت علي، فأوصني بشيء أتشبث به.

قال: لا يزال لسانك رطبًا من ذكر الله.

صيغ الذكر:

أفضل الذكر: لا إله إلا الله.

تغرس لك نخلة: سبحان الله العظيم وبحمده.

تُحط خطاياك: سبحان الله وبحمده 100 مرة.

من كنوز الجنة: لا حول ولا قوة إلا بالله.

أحب الكلام إلى الله: سبحان الله وبحمده.

ثقيلتان في الميزان: سبحان الله العظيم سبحان الله وبحمده.

الباقيات الصالحات: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر.

عقوبة الغفلة:

يقول ابن عباس:

الشيطان جاثم على قلب ابن آدم، فإذا سها وغفل وسوس، وإذا ذكر الله خنس.

قال -تعالى-: "استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله".

استحوذ عليهم الشيطان فأقصى ما صنعه بهم أن أنساهم الذكر، فأخرجهم من معية الله ليتولى غوايتهم، ويسهل عليه قيادهم.

أحد السلف قال لصاحبه: إياك ومجالسة الموتى.

فقال: ومن الموتى؟

قال: الذين أطغاهم الغنى وأنساهم الذكر.

فضل الذكر

يقول معاذ بن جبل:

ما من شيء أنجى من عذاب الله من ذكر الله.

قال -صلى الله عليه وسلم-: "سبق المفرِّدون.

قالوا: يا رسول الله، من المفرّدون؟

قال: الذاكرون الله كثيرًا والذاكرات؟

فهنيئًا لأهل الذكر فقد سبقوا...

سبقول للجنان عند الملك الديان.

كان هناك سباق للخيل فرأى أحد الشباب رجلًا قادمًا من ناحية السباق.

فسأله: من الذي سبق؟

فقال الرجل: سبق الذاكرون.

فقال الشاب: أنا أسألك عن الخيل.

فقال الرجل: وأنا أدلك على الخير.

فمن سبق؟

ليس الفنانون أو اللاعبون أو رابح المليون، بل سبق الذاكرون.

كان عمر بن الخطاب يقول لأصحابه:

هلموا نزداد إيمانًا، فيذكرون الله -عز وجل-.

قال -تعالى-: "إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه".

وكأن الكلم الطيب مع تأشيرة مرور تلقائية إلى السماء، أما العمل الصالح فيتولى الله رفعه إليه.

وبتحصيل اللذة في الصلاة والقرآن والذكر سيتحقق للعبد وعد الله له: "فلنحيينه حياة طيبة".

قال مالك بن دينار:

مساكين أهل الدنيا، خرجوا منها ولم يذوقوا أطيب ما فيها.

قيل: ما أطيب ما فيها؟

قال: محبة الله، والأنس به، والشوق إلى لقائه، والتنعم بذكره وطاعته.

قال أحد السلف: إنه لتمر بي الساعات يرقص القلب فيها طربًا من ذكر الله.

ومن ذاق عرف، ومن عرف اغترف، ومن أحب شيئًا أكثر من ذكره "واذكر ربك كثيرًا وسبح بالعشي والإبكار".

قال ابن تيمية: إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة.

جنة الإيمان والطاعة.

الحياة الطيبة التي وعد الله بها أهل الطاعة هي حياة القلب ونعيمه وبهجته، وفي ذلك يقول ابن القيم:

لا تحسب أن قوله -تعالى-: "إن الأبرار لفي نعيم، وإن الفجار لفي جحيم" مقصور على نعيم الآخرة وجحيمها فقط، بل في دورهم الثلاثة: دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار القرار.

فهؤلاء في نعيم، وهؤلاء في جحيم.

وهل النعيم إلا نعيم القلب، وهل العذاب إلا عذاب القلب؟

تقول عائشة -رضي الله عنها وأرضاها-: "كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يذكر الله على كل أحيانه".

فمن يقرأ كتاب حصن المسلم يجد أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان له مع كل حال ذكر، فالذكر من أيسر العبادات وأقربها إلى القلب وأنفعها "ألا بذكر الله تطمئن القلوب"، وقد قال الشاطبي في كتابه الاعتصام: ما شُرعت العبادات إلا من أجل الذكر، واستشهد بقوله -عز وجل-: "وأقم الصلاة لذكري" فمن لزم الذكر كان في معية الله، وبقي في الحصن، وبقيت في قلبه الحياة، وقد رُوي: "مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه كمثل الحي والميت"، قال ابن تيمية: الذكر للقلب كالماء للسمك، فكيف يكون حال السمك إذا أخرج من الماء؟ وقد كان -رحمه الله- يمكث في مصلاه بعد صلاة الفجر حتى قُبيل صلاة الظهر، ويقول: هذه غدوتي وإلا سقطت قوتي.

يتوهم البعض أن السعادة في قصر مشيد أو زوجة حسناء أو سيارة فارهة أو منصب مرموق أو سماع الأغاني أو متابعة الكرة أو في تعاطي الخمر والمخدرات، غرتهم دنياهم وخدعهم السراب، فمن يرد السعادة فليقرأ القرآن بتدبر، ويسبح ويستغفر ويمرغ جبهته ويطيل السجود، فلن تحلو الحياة إلا بذكر الله وفي حب الله ومع الله.

ولا تظن بأن الأمر سهل، فالنبي طلب المعونة من ربه، فكان -صلى الله عليه وسلم- يدعو دُبر كل صلاة: "اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك".

الإخلاص والرياء

"إن أول من تُسعرّ بهم النار ثلاثة:

عالم يقرأ القرآن:

طلب العلم، وحفظ المتون، وقرأ القرآن، ورتله.

ورجل جواد:

أنفق المال على الفقراء ومن يستحقه.

ورجل مجاهد:

حين سمع منادي الجهاد خرج غازيًا

لو أطلقت لخيالي العنان لظننت أن أول من تُسعّر بهم النار

آكل الربا، وهاتك الأعراض، وساحر، ولكن الأمر أتى على عكس ظنوني، فهؤلاء الثلاثة: العالم والجواد والمجاهد، أصحاب أعمال عظيمة لها جزيل الثواب، فما الذي أتى بهم إلى النار لتُسعّر بهم أولًا ؟!

سأل رجل تميم الداري: كيف صلاتك بالليل؟

فغضب -رحمه الله- وقال: ركعة أصليها في جوف الليل لا يعلم بها أحد أحب إليّ من أن أصلي الليل كله، ثم أصبح وأقصه عليكم.

كان مسلمة بن عبد الملك بن مروان يُحاصر حصنًا منيعًا للروم واستعصى فتْح الحصن فخطب في جنوده: "أما فيكم أحد يُحدث لنا نقبًا في هذا الحصن" تخفي أحد الجنود إلى أن وصل باب الحصن، وظل ينقب فيه حتى أحدث فيه نقبًا، ثم رجع دون أن يُخبر أحدًا، وعندما أشرق النهار، وانطلق جيش مسلمة تجاه الحصن ولج الجندي من النقب، وفتح باب الحصن، وما انتبه الروم إلا وقلعتهم ترتجُّ بالتكبير فرحًا بهذا الفتح.

أراد مسلمة قائد الجيش أن يُكافئ صاحب النقب، فنادى في جيشه: أين صاحب النقب؟ فلم يخرج أحد. فقال: عزمت على صاحب النقب أن يأتي للقائي. وللقائد على جنوده حق الطاعة، فتلثم صاحب النقب، وذهب إلى خيمة مسلمة، وطلب الإذن، فسأله الحاجب: أنت صاحب النقب؟ قال: سأدلكم عليه، دخل الجندي على مسلمة، وقال: إن صاحب النقب يشترط عليك ثلاثًا:

ألا تبعثوا باسمه إلى ديوان الخليفة، وإلا تأمروا له بعطاء، وألا تسألوه من هو، فقال مسلمة: له ذلك فأين هو؟ فأجاب الجندي في تواضع واستحياء: أنا صاحب النقب أيها الأمير، ثم سارع بالخروج.

فكان مسلمة يدعو في صلاته: اللهم اجعلني مع صاحب النقب يوم القيامة.

هناك عامل مشترك في موقفي تميم الداري وصاحب النقب. سأدعك تتقصَّى وحدك في المعاني قليلًا حتى آتيك بثالث.

زين العابدين بن الحسين كان كل ليلة يحمل على كتفه جرابًا فيه الشعير والتمر وما يحتاجه الناس في بيوتهم، ويدور في أروقة المدينة ليلًا يضع الطعام على أبواب الفقراء حتى إذا خرج الناس إلى صلاة الفجر وجدوا الطعام، ولم يعرفوا من أتى به، وظل على هذا الحال سنوات لم يُخبر بصنيعه أحدًا، وكان في طبع الناس مروءة، فلم يتتبعه أحد في ستر الليل أو يختبئ خلف جدار ليكشف هويته، وافته المنية والناس يجهلون أمره.

وهنا سأقف قليلًا لأجيب على سؤال دار بخاطرك:

طالما أن أمره كان سرًا، ولم يخبر به أحدًا، كيف وصلت حكايته إلينا؟!

علامتان: الأولى فيهما أثارت الشكوك والثانية أتت باليقين.

عند غسله وجدوا أن الجراب الذي كان يحمله قد أثر في عاتقه، فقالوا ما علمنا أنه اشتغل حمالًا. وبعد موته انقطع الطعام عن مائة بيت من بيوت الفقراء، فعلموا أنه هو الذي كان يأتيهم بالطعام.

العامل المشترك في المواقف الثلاثة هو حرص أصحاب المواقف على إخفاء العمل، وهذا من دواعي الإخلاص.

ما معنى الإخلاص؟

إفراد الله -عز وجل- بالقصد في الأفعال والأقوال، وألا تُرد بعملك إلا وجه الله والتقرب إليه، وأعمال الخفاء أقرب إلى الإخلاص، فالمخلص من يكتم حسناته كما يكتم سيئاته.

فقد قال سفيان الثوري: كل عمل ظهر مني أمام الناس لا أعده شيئًا.

ولعل ما قاله محمد بن أسلم يشرح لك علة ذلك:

"لو قدرت أن أتطوع حيث لا يراني ملكاي لفعلت خوفًا من الرياء"

صلى رجل في المسجد، ولما سجد بكى بكاءً شديدًا، فلما انتهى قال له أبو أمامة الباهلي: "أنت.. أنت لو كان هذا في بيتك".

لا خير في عين لا تبكي فمدح فعله، وتمنى أن يكون هذا في بيته بعيدًا عن الناس.

قال الحسن البصري:

"إن الرجل ليكون في المجلس فتجيئه عبرته، فإذا خشي أن تسبقه قام".

قال الأعمش كنت عند إبراهيم النخعي، وهو يقرأ في المصحف، فاستأذن عليه رجل فغطّى المصحف، وقال:

لا يراني هذا أقرأ فيه كل ساعة.

هكذا كان حرص السلف الصالح على إخفاء عبادتهم.

وما الضرر لو ظهرت عبادتي للناس؟

توقعت هذا السؤال منك، وسأروي لك الحديث كتوطئة. جاء رجل إلى النبي وقال: أرأيت رجلًا غزا يلتمس الأجر والذكر. فقال -صلى الله عليه وسلم-: "لا شيء له، إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصًا وابتغى به وجهه.

الرجل يسأل ولعله يقصد نفسه.

أرأيت رجلًا غزا، أي جاهد، يلتمس أي يرجو ويطلب الأجر أي الثواب، والذكر أي الشهرة وثناء الناس عليه.

فقال: لا شيء له، أي لا أجر له.

فالله لا يقبل إلا عملًا صدقت نية صاحبه له وحده.

ربما تظن أني تباطأت في الإجابة: لمَ سُعرت بهم النار؟

لم أتباطأ ولم أذهب لبعيد، حولها ندندن.

ربما نازعتك نفسك، وأنت تتصدق أن يراك الناس ويمدحوك، ويُقال عنك جواد، وربما كانت رغبتك في مدح الناس هي الدافع لصدقتك في المرة القادمة، وهذا هو الرياء.

ما معنى الرياء؟

الرياء مشتق من رؤية، ومصدره رَاءَى، ويُقال: مرائي.

ومعناه: أن يفعل العمل ليراه الناس، يصلي بخشوع ليمدحوا صلاته، يتصدق ليمدحوا سخاءه.

يقول الله -عز وجل- يوم القيامة للمرائين: "اذهبوا إلى من كنتم تراءون في الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم من جزاء".

ردّ الله عليهم عملهم، فالأمر لا يقبل القسمة على اثنتين، فتعالى الله عن الشراكة مع خلقه.

"يقول الله -عز وجل-: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه".

فالرياء يُحبط العمل، وقد قال -صلى الله عليه وسلم-: "إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر. قيل ما هو؟

قال: الرياء".

قال -تعالى-: "فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملًا صالحًا ولا يُشرك بعبادة ربه أحدًا".

تعال نرجع إلى البداية...

إن أول من تُسعّر بهم النار ثلاثة، وما زلت أذكر سؤالًا طرحته. العالم والمجاهد والجواد، ما الذي أتى بهم إلى النار؟

أدع لك الإجابة هذا المرة بعد النذر الذي قدمته.

ترد واثقًا لا شك أنه الرياء

أجل وقد أخبرتك من قبل أن الرياء يُحبط العمل، فالعالم تعلم ليُقال عالم، وقرأ ليُقال قارئ وقد قيل.

افتقد العالم الإخلاص والنية الصادقة، فجرته الملائكة على وجهه إلى النار.

تخيل عالمًا تقرأ له المؤلفات أو تراه على الفضائيات، تُسعّر به النار أولًا.

"وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون"

قال أحد السلف: قُل لمن لم يخلص لا تتعنى.

أي لا تُجهد نفسك، فعملك الذي تُرائي به مردود عليك.

والمعلوم سلفًا أن العالم تستغفر له حتى الحيتان في البحر، وأن الملائكة تضع له أجنحتها رضًا بما يصنع.

والعلماء هم ورثة الأنبياء.

وقد قال -عز وجل-:

"يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات"

ولكن هذا لا يكون إلا في حق المخلصين.

قال أبو سليمان الداراني:

طوبى لمن صحت له خطوة واحدة لا يُريد بها إلا الله -تعالى-.

فاجعل خطاك في طلب العلم لله، لا لتصرف وجوه الناس إليك أو لتحظى عندهم بمنزلة.

وقد قال أحد السلف: في إخلاص ساعة نجاة العمر كله.

فالبغيُّ التي سقت كلبًا كان عملها خالصًا، فلم تكن هناك كاميرات تنقل الحدث بثًّا مباشرًا، فالإخلاص سر القبول.

ويكفي المخلص الذي صحت نيته لله أنه أعجز إبليس، ورد كيده.

"قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين".

رجل وسع الله عليه، وأعطاه من أصناف المال، يُعرفه الله النعم التي عنده، ويسأله ما عمل فيها؟

فيقول: ما تركت من سبيل تُحب أن يُنفق فيها إلا أنفقت.

فيقول الله: كذبت، بل فعلت ليُقال جواد، وقد قيل.

فيُسحب على وجهه، ثم يُلقى في النار.

وتأمل معي، من السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم القيامة "ورجل تصدق بصدقة فأخفاها فلم تعلم شماله ما أنفقت يمينه"

صدقة قليلة جاءت نكرة في نفسها، لكن كبيرة عند ربها. فقد تصدق بها الرجل وأخفاها، ربما عمن جاوره، أو أنه حين وضع يده في حافظة نقوده أغمض عينه حتى لا يعلم قدر نفقته، كانت نيته صادقة، ولم يبتغِ إلا وجه الله، فقبلها الله منه وأظله تحت عرشه، وتبقى "أخفاها" هي كلمة السر، كما كان يصنع زين العابدين.

قال -صلى الله عليه وسلم-: "من استطاع منكم أن يكون له خبء من عمل صالح فليفعل".

فليعلم كل عاقل أن ميزان الأمور عند الله يختلف، فالرجل ما ترك سبيلًا للخير إلا أنفق فيه، ودخل النار. وهذا تصدق بصدقة قليلة ودخل بها الجنة.

قال -تعالى-: "وما أومروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين"

سُئل أحد السلف عمل كذا وكذا، ما ثوابه؟

فقال: إن قُبل لا يُحصى ثوابه.

فما شرط قبول الطاعات؟

الإخلاص، وتحدثنا عنه سلفًا، والمتابعة والتأسِّي بما جاء به الشرع.

وقد قال علي -رضي الله عنه-:

كونوا لقبول العمل أشد اهتمامًا منكم بالعمل.

عليّ بن الموفق يقول: جلست في صحن الكعبة، وقلت: يا عليّ بن الموفق، حججت ستين حجة، فهل قبلها الله منك، أم ردها الله عليك؟

فغلبني النوم، وسمعت هاتفًا يقول: يا علي بن الموفق هل تدعو إلى بيتك إلا من تحب. فقمتُ وقد سُري عني.

عذرًا، فلم أنتبه إلا الآن، فلم أحدثك عن الرجل الثالث بشيء.

ورجل مجاهد حين التقى الجمعان، وخطبت السيوف على منابر الرقاب صال وجال في أرض المعركة حتى سقط.

يؤتى به يوم القيامة للعرض على الله، فيعرفه الله نعمه عليه: القوة والإقدام، ويسأله: ماذا عملت فيها؟

فيقول: قاتلت فيك حتى استشهدت.

فيقال: كذبت، بل قاتلت ليُقال جريء، وقد قيل فيلحق بصاحبيه.

لو صحت لهم النوايا لكانوا من السابقين إلى الجنة. ولكن الرياء أحبط أعمالهم، فانقلبت عبادتهم عليهم وزرًا وعذابًا.

عند البخاري أن رجلًا أتى النبي -صلى الله عليه وسلم- وقال:

الرجل يُقاتل للمغنم، والرجل يُقاتل للذكر، والرجل يُقاتل ليُرى مكانه، فمن في سبيل الله؟

قال: من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله.

من أفضل الأعمال الجهاد في سبيل الله، وهو ذروة سنام الإسلام.

وقد قال -صلى الله عليه وسلم-: "واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف".

فما بال الرجل جاهد ومات ودخل النار؟ لم تكن نيته خالصة.

وآخر قاتل معه محتسبًا مقبلًا غير مدبر مع النبيين في الجنة.

قال ابن القيم -رحمه الله-:

ليس الشأن في العمل، إنما الشأن كل الشأن في حفظ العمل مما يُفسده ويُحبطه.

وكما أسلفنا، الرياء يُحبط الأعمال، فاحفظ عملك -حفظك الله- وقد نهانا -عز وجل-: "ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثًا".

وقد قال عبد العزيز بن رواد:

أدركتهم يجتهدون في العمل الصالح، فإذا فعلوه وقع عليهم الهمّ، أيُقبل منهم أم لا.

فرحم الله عبدًا وقف عند همّه -أي مراده- إن كان لله أمضاه، وإن كان لغير الله تأخر.

يقول ابن الجوزي:

لا تترك عملك خوفًا من أن يُقال مراء، فذلك من كيد الشيطان.

تصدق أمام الناس ليحذو أحدهم حذوك، واقرأ القرآن على مرأى من الناس لعل غافلًا ينتبه، وسبح واستغفر وصلِّ على نبيك، لعل من بجوارك يتذكر أو يخشى.

ولكن إن أذنت لي بطلب أغمض عينيك عن الخلق لكي لا ترى إلا الخالق فتصح لك نيتك، ولا تطلب على عملك شهودًا، فلا تحدث الناس

بما خفي من عبادتك، فمن علامات الإخلاص أن يستوي عندك مدح الناس وذمهم، فلا تنتظر منهم ثناء ولا يحزنك قولهم.

قالت امرأة لمالك بن دينار: يا مرائي.

فقال: هذه وجدت اسمي الذي أضله أهل البصرة.

ولعل الحارث بن قيس يهمس لك بما عجزت عنه:

إذا هممت بخير فلا تؤخر، وإذا أتاك الشيطان، وأنت تصلي، فقال: إنك تُرائي، فزدها طولًا.

فعالج نيتك، وتأمل عاقبة الرياء، ولا تنقض غزلك.

واعلم -عافاك الله- أن الإخلاص سر بين العبد وربه، فلا يعلمه ملك فيكتبه، أو شيطان فيفسده.

ولعلك ما زلت تذكرها: المخلص من يكتم حسناته كما يكتم سيئاته.

خاتمة

"لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من جنته أحد".

قال –تعالى-: "نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم، وأن عذابي هو العذاب الأليم".

قال جابر بن عبد الله: سمعت النبي يقول قبل موته بثلاثة أيام:

"لا يموتنَّ أحدكم إلا وهو يُحسن الظن بالله".

فأحسن الظن بالله، وتحلل من مظالم إخوانك، وأتبع السيئة الحسنة، وكلما تمزق ثوب إيمانك رقعه بالاستغفار، وقد قال الله -عز وجل-: "ومن يعمل سوء أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورًا رحيمًا".

فليس منا معصوم، ولنا في الله رجاء أن أكون أنا وأنت ممن قال فيهم: "وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملًا صالحًا وآخر سيئًا عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم".

وأوصيك قبل أن تغلق الكتاب:

أحسن فيما بقي من عمرك يُغفر لك ما مضى من ذنوبك.

فهرس

مقدمة 5

الرفق 7

- مكارم الخلاق تُثمر رفقًا..... 14

الغيبة 19

- عسل مسموم على موائد الصالحين:..... 25

- حيلة ربما تنفع: 25

- كفارة الغيبة:..... 26

الدعاء..... 27

- غريق:..... 33

- دعوة صادقة من قلب صادق: 34

- حال الدعاء مع البلاء:..... 35

- اسم الله الأعظم:..... 36

شيطانة أم ريحانة؟..... 41

- ريحانة يا حظ من عاش في كنفها..... 50

الاجتهاد في الطاعة..... 59

- الهمم العالية كنوز غالية: 60

- بيت في الجنة:..... 66

قسوة القلب..... 71

وقفوا على شفير الذنب 79

وقفة مع الداء..... 85
- المعصية تحجب لذة العبادة: 89
- شؤم المعصية على المجتمع:..... 90
وقفة مع الدواء..... 93
- ما الفرق بين الاستغفار والتوبة؟ 94
- ما هي صيغة الاستغفار؟ 96
- هل الاستغفار لا يكون إلا بعد الذنب؟..... 98
- الاستغفار أفضل أم التسبيح؟ 98
وقفة مع الشفاء 103
- إقلاع عن الذنب:..... 105
- عزم على عدم الرجوع:..... 106
الصدقة 111
- جبل من تمر:..... 113
- ثمرات مزهرة من الصدقة:..... 114
- ملك يدعو لك: 115
البر والعقوق..... 123
العُجب..... 135
- شفاء الصدور من داء العجب والغرور:..... 140
- تجفيف المنابع وقاية لا غنى عنها.. 141
سلامة الصدر..... 145
- خطوات الشفاء 150
- دع الجدل وأنت الرابح:..... 151
- لا تناول أذنك لأحد..... 152

- فض اشتباك بين المعاني: 153
- لصوص في ساحة الأولياء: 154
مخالفة الفعل للقول 157
الستر 161
- خاصية تتبع: 167
الخشية 171
- ثمرات الخشية: 178
فتنة النساء والخمر والمال 181
- فتنة النساء: 182
- فتنة الخمر: 192
- فتنة المال: 193
الخلوة 201
لا تغضب 209
- معيار القوة 212
- علاج الغضب: 216
وقفة مع الصلاة 221
- غذاء الروح: 224
- الصلاة نور: 226
- التهيئة والمبادرة 227
- لص في المسجد: 231
- كيفية تحصيل الخشوع: 234
وقفة مع القرآن 237
- ثلاثة ملايين في رصيدك: 238
- شرف وفضل ورفعة: 238

- من آداب القراءة: 239
- مرض وعلاج: 241
وقفة مع الذكر 243
- صيغ الذكر: 245
- عقوبة الغفلة: 246
- جنة الإيمان والطاعة 248
الإخلاص والرياء 251
- ما معنى الرياء؟ 256
خاتمة 263